من أسرار التناسب الصوتي
في
أدعية الاستفتاح
(دراسة بلاغية في النظم الصوتي)

إعــداد

الدكتور

حسين إبراهيم حسين إمام

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية للبنين بقنا

ملخص البحث

هذا بحث بعنوان: (من أسرار التناسب الصوتي في أدعية الاستفتاح – دراسة بلاغية في النظم الصوتي) وقد اصطفيت أدعية الاستفتاح التي كان النبي ﷺ يستفتح بها صلاته؛ لأنها لم تخرج عن الثناء والدعاء، فكثير من ألفاظها وتراكيبها من القرآن الكريم، وهو المثال الأعلى في سائر صور البيان، ثم إن باب الثناء والدعاء له في الصياغة والنظم ما يميزه دقةَ لفظٍ، وانسجامَ صوت، وروعةَ أداء، وصفاءَ تجلٍّ.

وقد انتهج هذا البحث منهج التحليل الصوتي القائم على محاولة إبراز علاقة الصوت بالمعنى، وكيف كانت الأصوات بصفاتها، ومخارجها، وحركاتها، في النظم الإفرادي والتركيبي مستجيبة للمعنى، متجاوبة مع السياق، وأنها ليست بأقل من سائر عناصر البيان وخصائص تركيبه من الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتشبيه والمجاز وغيرها.

Research Summary

This is a research entitled: (from the secrets of the proportionality of the voice in the Openness of the Openness - a rhetorical study in the systems of audio) and I have appropriated the supplications of the openness that the Prophet open his prayer; because it did not go out of praise and prayer, many of its words and structures of the Koran, All the other pictures of the statement, and then the door of praise and pray for him in the formulation and systems, what distinguishes the accuracy of the word, and harmony of voice, and the splendor of performance, and clarity manifest.

This research is based on the method of sound analysis based on the attempt to highlight the relationship of sound in the sense, and how the sounds in their qualities, exits and movements in the individual and syntactic systems were responsive to the meaning, responsive to the context and that they are not less than the rest of the elements of the statement and its characteristics of male, And others.

مُقَدِّمَة:

الحمد لله الذي اصطفى أشرف الخلق لرسالته ، واصطفى لأشرف الخلق أشرف كتاب، واصطفى لكتابه أشرف لغة، والصلاة والسلام على خير من بلغ الرسالة بأفصح لسان وأظهر بيان سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد،،،

فإن من خصائص العربية وأسرارها احتفاظها بكافة مقوماتها الصوتية، مما هيأ لها هذا التناسق الصوتي العجيب ، فليس للغة– وإن جلت– أن تطاولها، ولا للهجة – وإن عظمت– أن تسابقها، نعم هي مصوغة كسائر اللغات من الأصوات، لكنها في معينها الصافي رقراقة كالماء، عليلة كالنسيم، تحسبها من دقة تأليف أصواتها وانسجام حروفها شعرا، وتخالها من شدة تأثيرها في النفوس سحرا، وقد انتهجت العربية بفطرتها خصائص لتعديل كلماتها، كالذي تراه في الإبدال والإعلال والقلب والإدغام والحذف وغيرها من الخصائص التي تحقق الانسجام الصوتي والتشاكل اللفظي، فقالوا: اصطبر وازدجر ويخاف وخطايا ولم يقولوا: اصتبر وازتجر ويخْوُف وخطايئ، وعللوا ذلك في مواضع كثيرة بقولهم: طلبا للخفة، ولا شك أن هذه الخفة هي خفة لفظ ونطق، وانسجام صوت، والتئام حرف. كما انتهجت العربية تتبع المتنافر فنبذته، والمعقد المتعاظل فأقصته، والوحشي الغريب فطرحته، وكم راعوا السمع، وعولوا عليه؛ فكان هذا الصنيع شهادة ظاهرة بأن العربي مُعنًى بالجانب الصوتي، وأن له في تعديل اللفظ دورا رئيسا، وفي بناء المعنى تأثيرا بالغا، وفيه دليل قاطع على أن عموم العربية لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، ولا قلقا ولا نبوا. فكان من الواجب المحتم – والحال كذلك وفاءً لشرف العربية – أن نبحث عن أسرار تناسبها الصوتي، وعلل تآلفها اللفظي، وأن نقوم بذلك ونقعد لعلنا نهتدي إلى الكشف عن جانب من جوانب هذا التناغم والتلاؤم الذي طالما

ملأ نفوسنا، وهززنا له رؤوسنا، ثم مضينا دون تنبيه عليه، أو تعويل عليه، اللهم إلا في القليل النادر.

ويبقى السؤال الأهم: من أية الطرق تأتّى هذا الانسجام والتآلف؟ وما تلك الدقائق التي انطوت عليها أصوات هذه اللغة ومفرداتها وتراكيبها حتى غدت أنشودة اللغات وقصيدة الدهر الكبرى؟ من هنا كان هذا البحث .

وقد اصطفى البحث طرفا من سنة المصطفى ﷺ مجالا للتطبيق؛ ذلك لأنه ﷺ خير من نطق من البشر، وأفصح من أبان من الخلق، تظاهرت أقواله، وتسامت معانيه، واتسقت ألفاظه، وانسجمت أصواته، فكانت الماء إلا أنها أصفى، والشهد إلا أنها أحلى، والدواء إلا أنها أشفي، اكتست من الوحي مهابة، ومن النبوة جلالا. **وقد قال يونس بن حبيب: " ما جاءنا عن أحد من روائع الكلم ما جاءنا عن رسول الله ﷺ "**[1] **وقال القاضي عياض – رحمه الله– : "وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول: فقد كان –ﷺ– من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل؛ سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف.**"[2]

وأكبر دليل على ذلك أن الله شرفه فوكل إليه تبيين الذكر للناس، فقال – عز وجل– ممتنًّا في سورة النعم : ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾[3] وقال: ﴿ **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ**﴾[4] فهذه شهادة من الله لنبيه ﷺ بتمام نعمة البيان من كل وجه؛ فإن الله لا يختار لتبيين كتابه إلا أفصح لسان وأبلغ مبين. ولذا قال ﷺ : (**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ**

---

١) ينظر البيان والتبيين ٢|١٨ الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت– ١٤٢٣ هـ

٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٥٦ – ٥٧ – المؤلف: عياض بن موسى بن عياض السبتي، الناشر: دار الفيحاء – عمان الطبعة: الثانية – ١٤٠٧ هـ

٣) سورة النحل من الآية: ٤٤

٤) سورة النحل من الآية: ٦٤

وَاخْتُصِرَ لِـي الْكَـلامُ اخْتِصَـارًا)[1] وبنـاء الفعلين(أوتيت واختصر) لما لم يُسمَّ فاعله يدل على أن ذلك من الله لا منه، وأنه خصه بتلك النعمة دون البشر قاطبة؛ لأن سياق الحديث للتفضيل، فليس ثم مبين يلحقه، ولا معرب يسير في ركابه، فالشعراء – وإن جل بيانهم– دونه، والخطباء – وإن هزوا المنابر– لا يدركونه؛ لأن كلامه وحي من الوحي، ونور من النور، ولذ قال ﷺ: **(أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَه)**[2]

وإذا كان البلاغيون قد وقفوا مع بيانهﷺ فراقبوا المعاني وتصرفاتها، وبينوا كيف أنها كوافٍ شوافٍ، والألفاظ وكيف أنها حواملُ كواملُ، والتراكيب وخصائصها، والتشبيهات وإصابتها، وكل ما يتعلق بنظم البيان وخصائص تركيبه، فقد بقي هذا الجانب الصوتي الذي نشعر به، ونتبينه في نفوسنا، بقي في الحديث النبوي وغيره لم تحاوله أقلام الباحثين إلا قليلا، فظللنا نستشعره ولا نعوّل عليه، ونحسه ولا نحاول أن نفسره أو نقترب منه، فحاولت مستعينا بالله أن أطرق هذا الباب؛ لعلني أوفق ولو في الدلالة عليه؛ فالدال على الخير كفاعله، فكان هذا البحث :

(من أسرار التناسب الصوتي في أدعية الاستفتاح – دراسة بلاغية في النظم الصوتي–). وقد اصطفيت أدعية الاستفتاح التي كان النبي ﷺ يستفتح بها صلاته؛ لأنها لم تخرج عن الثناء والدعاء، فكثير من ألفاظها وتراكيبها من القرآن الكريم، وهو المثال الأعلى في سائر صور البيان، ثم إن باب الثناء والدعاء له في الصياغة والنظم ما يميزه دقةَ لفظٍ، وانسجامَ صوت، وروعةَ أداء، وصفاءَ تجلٍّ.

---

١) المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي المؤلف: أبو الحسن الهيثمي ٥٨/١ – تحقيق: سيد كسروي حسن الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان

٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن حنبل ١٢/١ – المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م

وقد انتهج هذا البحث منهج التحليل الصوتي القائم على محاولة إبراز علاقة الصوت بالمعنى، وكيف كانت الأصوات بصفاتها، ومخارجها، وحركاتها، في النظم الإفرادي والتركيبي مستجيبة للمعنى، متجاوبة مع السياق، وأنها ليست بأقل من سائر عناصر البيان وخصائص تركيبه من الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتشبيه والمجاز وغيرها .

وقد صدرت هذا البحث بعد هذه المقدمة بمدخل وتمهيد، لخصت في المدخل التعريف بأهم صفات الحروف التي ورد ذكرها في ثنايا البحث، ثم أوردت نصوص أدعية الاستفتاح معزوّة إلى مصادرها، وفي التمهيد عرضت للصوت والدلالة في التراث العربي، مبيّنًا أن التناسب الصوتي ولمح العلاقة بين الأصوات ودلالاتها ليس بالبحث البكر الذي تركه الأول للآخر، بل إن التراث العربي قد تنبه إليه وإلى أهميته . وبعد المدخل والتمهيد جاء البحث في فصلين:

الفصل الأول: جرْس الكلمة وأثره في التناسب الصوتي

وفيه ثلاثة مباحث:

الأول: صفات الحروف وأثرها في التناسب الصوتي.

الثاني: مخرج الصوت وأثره في التناسب الصوتي.

الثالث: أصوات المد وأثرها في التناسب الصوتي.

الفصل الثاني: انسجام التأليف الصوتي.

وفيه مبحثان:

الأول: جمال النسق وانسجام التأليف الصوتي.

الثاني: الصور البلاغية وانسجام التأليف الصوتي.

الخاتمة وفيها أهم النتائج التي خرج بها هذا البحث .

وبعد، فالذي لا يساورني فيه شك أن اللغة العربية ذات أسرار في تناسبها الصوتي، وأن هذا التناسب درجات بحسب فصاحة المبين وبلاغته، وأن بيان النبي ﷺ في الدرجة العليا في البيان البشري في هذا الباب وغيره، والذي لا

أجد له جوابا: ما سر عزوف الجمهرة عن تتبّع هذا الباب ووضع أصول له أو ضوابط تفتح مغاليقه، وتدرجه في عناصر التحليل؟

هذا، ولا أزعم أني وفيت الباب حقه، أو قاربت، ولكن حسبي أني بذلت الوسع، واستفرغت الجهد، والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يعفو عن كاتبه وقارئه إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وكتبه/حسين إبراهيم حسين

مدخل:

وردت في ثنايا البحث جملة من صفات الحروف وهي غير متداولة في كتب البلاغيين فعرفت بها مجملة ليكون القارئ الكريم على ذكر منها، وأهم هذه الصفات: الهمس، والجهر، والشِدَّة، والرَخَاوة، وبين الرَّخاوة والشدَّة، والاستعلاء، والاستِفَال، والانطباق، والانفتاح، والإصْمَات، والذَلَق، والصفير، والقلقلة، والمدّ، والانحراف، والاستطالة، والتَفَشّي، والتكرار.(١)

فأما الهَمْس: فيوصف به عشرة أحرف يجمعها أحرف: "فحثَّه شخصٌ سَكَت".

وأمَّا الجَهْر: فيوصف به تسعة عشر حرفًا، وهي ما عدا العشرة المذكور.

وأمَّا الشدَّة: فيوصف بها ثمانية أحرف يجمعها أحرف: "أَجِدُ قَطٍ بَكَت".

وأمَّا الصفة التي بين الرخاوة والشِّدَّة: فيوصف بها خمسة أحرف يجمعها أحرف: "لِنْ عُمَر".

وأمَّا الرَّخَاوة: فيوصف بها ستة عشر حرفًا، وهي ما عدا الثلاثة عشر المذكورة.

وأمَّا الانطِبَاق: فيوصف به أربعة أحرف، وهي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء.

وأمَّا الانفِتَاح: فيوصف به خمسة وعشرون حرفًا، وهي ما عدا الأربعة المذكورة.

وأمَّا الذَّلَق: فيوصف به ستة أحرف يجمعها أحرف: "فَرَّ مِنْ لُبِّ".

وأمَّا الإصْمَات: فيوصف به ثلاثة وعشرون حرفًا، وهي ما عدا الستَّة المذكورة.

وأمَّا الانحِرَاف: فيوصف به حرفان، وهما: اللام، والراء.

وأما التفَشّي: فيوصف به الشين المعجمة فقط.

---

١) ينظر بغية المستفيد في علم التجويد – سلسلة لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام المؤلف: محمّد بن بدر الدين بن عبد الحق ابن بَلْبَان الحنبلي ص ٢٨ وما بعدها ، اعتنى به: رمزي سعد الدين دمشقية الناشر: دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م.

وأما الاستطالة: فيوصف بها الضاد المعجمة فقط.

وأما التكرار: فيوصف به الراء فقط، ومعنى وصفه به: كونه قابلًا له، أي فيجب التحرُّز منه.

وأما الاستعلاء: فيوصف به سبعة أحرف، يجمعها أحرف: "خُصَّ ضَغْطٍ قِظْ"

وأما القلقلة: فيوصف بها خمسة أحرف، يجمعها أحرف: "قطب جد".

وأما الصفير: فيوصف به ثلاثة أحرف : الصاد والسين المهملتان، والزاي المعجمة، سُمِّيت بذلك لصوت يخرج معها بصفير يشبه صفير الطائر.

وأما المد: فله ثلاثة أحرف: الألف الساكنة، ولا يكون ما قبلها إلَّا مفتوحًا، والواو الساكنة المضموم ما قبلها، والياء الساكنة المكسور ما قبلها.

نصوص أدعية الاستفتاح

١-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ، سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ " أَقُولُ: اللهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ)[١].

٢-عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ كَبَّرَ ثُمَّ قَالَ: (وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)[٢]

---

١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة- ١٤٩/١الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

٢) مسند أبي داود الطيالسي المؤلف: أبو داود سليمان بن داود الطيالسي البصرى ١٢٩/١ – المحقق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي الناشر: دار هجر – مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م.

٣-عن عائشةَ قالَت: كان رسولُ اللَّهِ -ﷺ- إذا استَفتَحَ الصَّلاةَ قال: (سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمدِكَ، وتبارَكَ اسمُكَ، وتَعالَى جَدُّكَ، ولا إلَهَ غَيرُكَ)[١]

٤-عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ قَالَ رَجُلٌ فِي الْقَوْمِ: (اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَان اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " مَنِ الْقَائِلُ كَذَا وَكَذَا؟ " فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: " عَجِبْتُ لَهَا، فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ)[٢]

٥-عَنْ أَنَسٍ: أَن رَجُلًا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ) فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا قُلْتُهَا، وَمَا أَرَدْتُ بِهَا إِلَّا الْخَيْرَ. فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: "لَقَدِ ابْتَدَرَهَا اثْنَا عَشَرَ مَلَكًا، فَمَا دَرَوْا كَيْفَ يَكْتُبُونَهَا، حَتَّى سَأَلُوا رَبَّهُمْ، فَقَالَ: اكْتُبُوهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي".[٣]

٦-عن ابن عباس قال كان النَّبِيُّ - ﷺ - إذا قامَ مِنَ اللَّيلِ يَتَهَجَّدُ قال: "اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ أنتَ نورُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ، ولَكَ الحَمدُ أنتَ قَيِّمُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ، ولَكَ الحَمدُ أنتَ مَلِكُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ، ولَكَ الحَمدُ أنتَ الحقُّ، ووَعدُكَ الحقُّ، وقَولُكَ حَقٌّ، ولِقاؤُكَ حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنّارُ حَقٌّ، والسّاعَةُ حَقٌّ، والنَّبيّونَ حَقٌّ، ومُحَمَّدٌ -ﷺ- حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أسلَمتُ، وبِكَ آمَنتُ، وعَلَيكَ تَوَكَّلتُ، وإلَيكَ أنَبتُ، وبِكَ خاصَمتُ، وإلَيكَ حاكَمتُ، أنتَ رَبُّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ فاغفِرْ لِي ما

---

١) السنن الكبرى المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحُسَين بن عليّ البيهقي ٣٨٣/٣ – تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي – الناشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية – الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م

٢) مسند الإمام أحمد ٢٤٥/٨

٣) صحيحُ ابن خُزَيمة المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري ٢٦٦/١– حَققهُ وعَلّق عَلَيه وَخَرّجَ أَحَاديثه وَقدَّم له: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي – الناشر: المكتب الإسلامي – الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

قَدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرتُ وما أعلَنتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أنتَ المُقَدِّمُ وأنتَ المُؤَخِّرُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إلَهَ إلا أنتَ، ولا حَولَ ولا قوَّةَ إلا بِكَ)[1].

٧-عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ ، قَالَتْ: (كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[2]

٨-عن حُذيفة: أنه رأى رسولَ الله- ﷺ-يُصلي من الليل، فكان يقولُ: "الله أكبرُ- ثلاثاً- ذو المَلَكوت والجَبَروت والكِبرياء والعَظَمة)[3]

٩-عَنْ عَاصِمِ بْنِ حُمَيْدٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ: مَاذَا كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَفْتَتِحُ بِهِ قِيَامَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكَ، كَانَ يُكَبِّرُ عَشْرًا، وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُسَبِّحُ عَشْرًا، ويُهَلِّلُ عَشْرًا، وَيَسْتَغْفِرُ عَشْرًا، وَيَقُولُ:"اللَّهُمَّ اغْفِرْ

---

١) مسند الإمام أحمد ٤٢٤/٣

٢) صحيح مسلم المسمى المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ المؤلف: مسلم بن الحجاج – المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ٤٣٥/١ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، وصحيح ابن خزيمة، المؤلف: أبو بكر محمد بن خزيمة النيسابوري ١٨٥/٢ – المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت

٣) سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) – المحقق: شعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي ١٥٤/٢ الناشر: دار الرسالة العالمية– الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م

لِي وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي "عشْرًا ويقولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الضِّيقِ يومَ الْحِسَابِ عَشْرًا)[1].

١) سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجة القزويني ٣٧٦/٢ – المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد – محمَّد كامل قره بللي – عَبد اللّطيف حرز الله – الناشر: دار الرسالة العالمية – الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

تمهيد

الصوت والدلالة في التراث العربي[١]

ليس البحث عن التناسب الصوتي ولمح العلاقة بين الأصوات ودلالاتها بالبحث البكر الذي تركه الأول للآخر، بل إن التراث العربي قد تنبه إليه وإلى أهميته، وإن كانت تلك اللمحات والإشارات تدور في فلك التذوق والإحساس بالجمال النابع من أصوات الحروف، ومن تجاورها وحركاتها ونغمها ومدها وتضعيفها وجهرها وهمسها وشدتها ولينها إلى آخر ما يفيض به الصوت من جرس، وما يتوشى به من إيقاع، وما يتزين به من حلى تدعو إلى الروح والانشراح.

وبعض هذه اللمحات اتجهت إلى الدرس الصوتي دراسة عمودها الكشف عن العلاقة بين أصوات الحروف ودلالاتها، الأمر الذي يجلي أهمية هذا الباب، وضرورة العكوف عليه تأصيلا وتحليلا.

وكان من الرواد الذين أشاروا إليه:

الخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى ١٧٠هـ):

حين ينجر الحديث عن الدرس الصوتي على وجه العموم يطالعنا الخليل بن أحمد بكتابه الرائد (العين) في موضوعه ومنهجه.

ومن الأمثلة التي استشهد بها الفراهيدي على وجود العلاقة الطبعية بين اللفظ ومدلوله قوله :"صرّ الجندُب صريرا، وصرصر الأخطب، كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدّا، وتوهموا في صوت الأخطب ترجيعًا ؛ فالتثقيل مدّ، والتضعيف ترجيع"[٢].

---

١) أفدت كثيرا في هذا التمهيد من كتاب البلاغة الصوتية في القرآن الكريم لمؤلفه الدكتور محمد إبراهيم شادي

٢) العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٥٦/١ المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي الناشر: دار ومكتبة الهلال

فهذا من الخليل – رحمه الله– تنبه إلى تلك المحاكاة بين الصوت ومدلوله، فلما كان في صوت الأخطب ترجيع لا استطالة فيه رجَّعوا الصوت الدالَّ عليه، وردَّدوه، فحكوا بترديد حروفه ترديد صوته، بخلاف الجُندُب الذي في صوته استطالة لا ترديد فيه، فلم يردّدوا حروفه بل ضعَّفوا الحرف فاستطال، فحكوا باستطالته استطالة صوته .

ويقول في استحسان العرب بناء المضاعف الرباعي: "وأما الحكايةُ المُضاعفَة فإنها بمنزلة الصَّلْصلة والزَّلْزَلَةِ وما أشبهها، يتوهّمون في حُسن الحركة ما يتوهّمون في جَرْس الصوت...وذلك بناءٌ يستحسنه العَرَبُ، فيجوز فيه من تأليف الحروف جميع ما جاء من الصحيح والمعتلّ ومن الذُّلْقِ والطُّلْق والصُّتْم"(١).

فما وجه استحسان العرب لهذا البناء؟ ولمَ قبلوا فيه ما لم يقبلوا في غيره؟ أليس في بنائه الصوتي القائم على التوازن والتوازي ما يشعر بخصيصة فيه وميزة بها يفارق غيره من الأبنية؟

وبهذا يكون الخليل قد تنبّه إلى قضية الجرس الصوتي، ونبّه إليها وإلى تلك العلاقة القائمة بين البناء الصوتي ومدلوله.

سيبويه: (المتوفى: ١٨٠هـ)

اتَّبع سيبويه مذهب شيخه في تلمّس تلك العلاقة بين الصوت والمعنى، فرأى أن في بنية الكلمة ووزنها ما يوحي بدلالتها، وأن توارد كلمات على وزن واحد يدل على دورانها على معنى متقارب، فذكر أن العرب "قد جاءوا بـ (الفَعَلَان) في أشياء تقاربت، وذلك: (الطَوَفان والدَّوَران والجَوَلان)، شبهوا هذا

١) السابق ٥٥/١ أراد بالحروف (الصتم) الحروف القوية الشديدة فالصَّادُ وَالتَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَمَامٍ وَقُوَّةٍ.(مقاييس اللغة لأحمد بن فارس ٣٣٣/٣ ، المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.)

حيث كان تقلباً وتصرفاً بالغليان والغثيان وتصرفه؛ لأن الغليان أيضاً تقلب ما في القدر "[١]

وهذا تحسس منه – رحمه الله– لمواقع الصوت داخل الكلمة المفردة، فإن ذهبت تتساءل عن وجه تلك الدلالة وكيف دل هذا المصدر (الفَعَلان) على معنى التقلب لأنبأتك حركات حروفه المتتابعة بهذا التقلب وتلك الحركة الدائبة ففي" تتابع الحركة ما يدل على تتابع حركة مسماها"[٢] وبهذا يكون سيبويه قد أشار إلى أن تتابع الحركات رافد من روافد الدلالة .

الجاحظ: (المتوفى: ٢٥٥هـ)

كان للجاحظ إشارات صوتية متنوعة، جليلة القدر، عظيمة النفع لمن تأملها؛ فقد تحدث عن الحروف ما يصح تجاوره منها، وما لا يصح، فذكر" أن في العربية حروفا لا تجتمع، فالجيم لا تقارن الطاء ولا القاف ولا الغين في تقديم أو تأخير، والزاي لا تقارن الطاء أو السين أو الضاد أو الدال بتقديم أو تأخير "[٣]

كما تحدث عن مشاكلة اللفظ المعنى ودوره في الاستحسان فقال:

"ومتى شاكل –أبقاك الله– ذلك اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقا، ولذلك القدر لفقا، ..كان قمينا بحسن الموقع، وبانتفاع المستمع،.. ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه، متخيرا من جنسه، وكان سليما من الفضول، بريئا من التعقيد، حبّب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم

١) الكتاب لسيبويه، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون ٤ / ١٤ ط مكتبة الخانجي ط ٢ القاهرة ١٩٨٢م.

٢) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ١٠٨/١ الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان

٣) البيان والتبيين للجاحظ ١٦/١ الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر: ١٤٢٣هـ.

بالعقول. وهشّت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخفّ على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره"[١].

فالجاحظ وهو يتعرض لفضائل اللفظ المشاكل ذكر حسن الموقع، وانتفاع المستمع به، وهشاشة الأسماع إليه، وخفته على ألسن الرواة، وكل هذا يدل بوضوح على ضرورة تلك المشاكلة التي تقوم – ضرورة أول ما تقوم – على حسن اصطفاء الأصوات التي تتجاور لتشكل لفظا يشاكل معناه.

كما اشترط لجلال المعنى وكونه أحلى في القلب أن يكون حسن اللفظ سهل المخرج فقال: "فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا، وأعاره البليغ مخرجا سهلا، ومنحه المتكلم دلا متعشقا، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملا."[٢]

وحين تعرض لأجود الشعر عول بقدر كبير على روافد صوتية، كسهولة الصوت، ولينه، وسلاسته وخفته على اللسان، فأبان أن الجيد من حروف الكلام وأجزاء البيت ما نراها "سهلة لينة، ورطبة مواتية، سلسة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد."[٣]

الرماني (المتوفى: ٣٨٤هـ)

عقد الرماني في كتابه النكت بابا سمّاه (باب التلاؤم) وذكر أن " السبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما. وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد.. والفائدة في التلاؤم: حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، وتقبل المعنى له

١) السابق ٢/٧
٢) السابق ١/٢١٢
٣) السابق ١/٧٥

في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة."[١] "فهو يرد التلاؤم إلى صفة اللبنات الأولى للكلام – الحروف–"[٢] وهذا –لاشك– نظر فيما هو الأصل في البناء؛ إذ لا يحسن اللفظ، ولا يُقبل المعنى إلا إذا تحقق هذا التلاؤم، ولا يتحقق التلاؤم إلا بتعديل الحروف في التأليف فعاد الفضل أسه إلى الحروف.

القاضي الجرجاني: (المتوفى: ٣٩٢هـ)

نرى الجرجاني حين تعرض لفصل الشعر، وذكر أن منه الوعر الصعب، ومنه الرقيق السهل أرجع ذلك إلى أسباب، وذكر له أمارات، فذكر أن "سلامةَ اللفظ تتبعُ سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخِلقة. وأنت تجدُ ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك، وترى الجافي الجِلْف منهم كزّ الألفاظ، معقّد الكلام، وعْر الخطاب؛ حتى إنك ربما وجدتَ ألفاظه في صوته ونغمته، وفي جرْسه ولهجته."[٣]

تأمل كيف أبان أن الصوت والنغمة والجرس واللهجة – وكلها روافد صوتية – أماراتٌ على الوعورة والرقة .

ثم ذكر أن مجيء الإسلام كان سببا في قبول ليّن اللفظ وطرح الخشِن الوعر، حتى ذكر أنهم يختارون من أسماء الشيء أليَنه لفظًا، وأحسنه سمعا، وذكر أمثلة على ذلك منها : أنهم وجدوا للعرب في(الطويل) "نحواً من ستين

---

١) النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، ص٩٦، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام الناشر: دار المعارف بمصر الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م

٢) البلاغة الصوتية في القرآن الكريم د. محمد إبراهيم شادي ط/الرسالة – الأولى ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨م ص١٦

٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه المؤلف: أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني١٨/١– تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

لفظة؛ أكثرها بشِع شنِع؛ كالعشنّط والعنَطْنَط والعشنّق، والجسْرَب والشّوْقَب والسّلْهب والشّوْذب، والطّاط والطّوط، والقاق والقوق، فنبذوا جميع ذلك وتركوه، واكتَفوا بالطويل لخفّته على اللّسان، وقلة نبُوّ السمع عنه."[1]

فمن أين جاءت خفة اللفظ وشناعته إلا من الأصوات التي بني منها اللفظ، فهذا تعويل رئيس على الجانب الصوتي، ونحن نجد البون الشاسع في اللسان والأذن والذوق بين ما اختاروا وما نبذوا، وقد يقتضي السياق أحد هذه الألفاظ التي تركوا فيحسن موضعه، ويجل موقعه . لكن المهم أن الجرجاني – رحمه الله – يعول على الجانب الصوتي في القبول والرد تعويلا بيّنا.

أبو الفتح ابن جني: (المتوفى: ٣٩٢هـ)

إذا وصل البحث عند ابن جني فقد وصل إلى أشهر من فتّقَ أكمامَه، وشقَّ عنه الصدف؛ حيث أشار أبو الفتح – رحمه الله – إلى التشاكل بين الأصوات والمعاني في ثلاثة أبواب: في إمساس الألفاظ أشباه المعاني، وفي تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وفي باب الاشتقاق الكبير .

يقول: "فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، فباب عظيم واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم. وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدلونها بها، ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدّره، وأضعاف ما نستشعره. من ذلك قولهم: خضم وقضم، فالخضْم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضْم للصُّلب اليابس نحو: قضمَت الدابة شعيرها ونحو ذلك... فاختاروا (الخاء) لرخاوتها للرطب، و(القاف) لصلابتها لليابس؛ حذوًا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث.

---

١) السابق ١٨/١

ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى من النضح، قال الله سبحانه: (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ)[1] فجعلوا الحاء –لرقَّتها– للماء الضعيف، والخاء –لغلظها– لما هو أقوى منه."[2]

ومن يتتبع إشارات ابن جني في هذا الباب يجد ثراء وتنوعا في درس التناسب الصوتي، وهو – بحق– يُعد أكثر اللغويين شغفا بهذا الباب، وقد أعانه على ذلك حسُّه اللغوي الشفيف وذائقته المتميزة.

عبد القاهر الجرجاني: (المتوفى: ٤٧١هـ)

لم يغفل عبد القاهر –رحمه الله– الأثر الصوتي في الدرس البلاغي، بل ألمح إليه في تقديمه لباب التقديم والتأخير؛ حيث يقول: "هو باب كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترُّ لك عن بديعة، ويفضى بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر، فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك أن قُدّم فيه شيء، وحُول اللفظ عن مكانه إلى مكان."[3]

وقد ذهب الأستاذ الدكتور محمود توفيق – حفظه الله – إلى أن قوله: (يروقك مسمعه) آية على أن التقديم والتأخير رافد من روافد الايقاع الصوتى للعبارة، وبهذا يكون عبد القاهر قد هدى إلى أثر اختيار مواقع الكلمات في

---

١) سورة الرحمن ، آية:٦٦

٢) الخصائص المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي– الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب– الطبعة: الرابعة ٢/١٦٠،١٥٩

٣) دلائل الإعجاز المؤلف: أبو بكر عبد القاهر الجرجاني الدار ، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر ص:١٠٦ – الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة– الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

عزف إيقاعات البيان. ورأي أن في ترداد ألفاظ (الطلاوة، والحلاوة، والحسن) في تحليله لبعض الشواهد من دلائل عنايته بحسن إيقاع الكلام.[1]

وهذا لا يتعارض مع إغفاله النظر في اللفظة المفردة كما صرح بذلك في قوله: "وجملةُ الأمْرِ أنَّا لا نُوجِبُ "الفصاحَة" لِلْفَظةٍ مقطوعةٍ مرفوعةٍ من الكلامِ الذي هي فيه، ولكنا نوجبها لها موصولةً بغيرها، ومعلَّقاً معناها بمعنى ما

---

١) ينظر العزف على أنوار الذكر ص: ٢٢٣ للأستاذ الدكتور / محمود توفيق وينظر تحليله الصوتي البلاغي لبعض شواهد عبد القاهر حيث يقول في بيت ابن المعتز:

وَإِنِّي عَلَى إِشْفَاقِ عيْنِي مِنَ العِدَا ∴ لتَجْمَحُ مِنِّي نَظْرَةٌ ثُمَّ أَطْرِفُ

يمكنك أن تصغي إلى أصوات الغنة في البيت الأول (النون والميم) وتوزيع صوت العين في الشطر الأول منه، مضافًا إلى ذلك أصوات المد في هذا الشطر مما يحدث رنينا وتصويتًا عليًا في الأذن، يتلاءم مع ما يموج في صدر الشاعر.

وفي البيت الآخر تصغي إلى أصوات الحاء والعين والمد، مما يبعث جهارة الرنين، وقد وزعت الأصوات توزيعًا متساوقًا، فاستمع إلى المد وموقعه في (سالت، شعاب، حين، دعا، انصاره، بوجوه، كالدنير، وهذا المد يمنح نفس المترنم امتدادًا كامتداد سيلان أنصاره المُشْرِق في النَّفس بهجةً، وهذه العين الموغلة بجهارتها في الحلق والأذن أيضًا تمكن النغم في نفس المتلقي، وقد وزعت على مساحة الترنّم في الشطر الأول، فالسكون الذي في (تاء) سالت، وما فيها من همس يمهد لانطلاق العين في (عليه) ، ثُمّ الكسرة بما فيها من جهارة وخفض تستريح النفس معه تمهد لصوت العين المردف بالامتداد، وكأنّه يصور لك امتداد هذه الشعاب، وتأتى كذلك الفتحة من قبل العين المردوفة بما هو من جنس ما قبلها (الفتحة والألف) في (دعا) كل ذلك حين تصغي إليه يقيم في قلبك تناغما مبهجًا يصور لك بهجة إقبال أنصاره عليه بوجوه كالدنانير، وقد ساعد على ذلك نظم البيت، فانظر كيف قدم قوله (عليه) ، وقدم الظرف (حين) وأخر المتعلق بسال (بوجوه..) ، وكيف أنه أسند الفعل (سال) إلى الشعاب، وكيف أنَّه أضاف الشعاب إلى الحيّ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من فيض الحركة المتساوقة مع الحركة في سالت، وهي حركة حياة اشتق منها قوله: (الحيّ) وغير هذا لا يخفى عليك في البيت. (العزف ص: ٢٢٣).

يَليها."[١] نعم لا يتعارض؛ لأنه جعل حسنها وقبحها معقودا بالسياق، فهو لم يغفلها من حيث هي، بل من حيث إنها تستقل بالحسن، وتنفرد بالمزية. وفحوى كلامه: "أنه لا ينبغي أن نهتم بالحرف والكلمة إلا في إطار الاستعمال، فلنا الحق في البحث عن لَبِنات التشكيل الأولى من أصوات ومقاطع وكلمات مفردة، على أن نضع نصب أعيننا موضعها في السياق والتأليف؛ لأن ذلك هو الخيط الذي نستمد منه أهمية الأصوات والمقاطع والكلمات المفردة"[٢]

ابن الأثير: (المتوفى: ٦٣٧هـ)

سجل ابن الأثير إحساسه البالغ برقة اللفظ وفخامته، فلم يبرح أن صوّر لنا صورة شاخصة لكل من اللفظ الرقيق واللفظ الجزل حيث ذكر "أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج، ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم، واستلأموا سلاحهم، وتأهّبوا للطّراد، وترى ألفاظ البحتري كأنّها نساء حسان عليهنّ غلائل مصبّغات وقد تحلّين بأصناف الحلي"[٣]

فهو هنا "يحدد وظيفة السمع بما يجعله جديرا بالتعويل عليه"[٤] وإذا كان للسمع دور فإنما هو تابع ولاحق للأصوات نفسها، وما تحمل من صفات وحركات، وما فيها من تجاور، ومد، وتضعيف وغير ذلك .

كما اشترط في الفصاحة خفة الحركات فقال:

---

١) دلائل الإعجاز

٢) البلاغة الصوتية ص١٩

٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ١/١٨١ المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت عام النشر: ١٤٢٠هـ.

٤) البلاغة الصوتية ص٢٠

"ومن أوصاف الكلمة أن تكون مبنيَّة من حركات خفيفة، ليخفَّ النطق بها، وهذا الوصف يترتَّب على ما قبله من تأليف الكلمة، ولهذا إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة، فإنه إذا توالى منها حركتان في كلمة واحدة استثقلت. ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو، والكسرة على الياء؛ لأن الضمَّة من جنس الواو، والكسرة من جنس الياء، فتكون عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان."[١]

الرازي: (المتوفى: ٦٠٦هـ)

من إشاراته الصوتية ما ذكره في تفسير قوله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى)[٢] قال: "أَقْنى مَعْنَاهُ: وَزَادَ عَلَيْهِ، الْإِقْنَاءُ فَوْقَ الْإِغْنَاء، وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّ الْحُرُوفَ مُتَنَاسِبَةٌ فِي الْمَعْنَى، فَنَقُولُ: لَمَّا كَانَ مَخْرَجُ الْقَافِ فَوْقَ مَخْرَجِ الْغَيْنِ جَعَلَ الْإِقْنَاءَ لِحَالَةٍ فَوْقَ الْإِغْنَاءِ،"[٣]

وفي موضع آخر يفرق بين الهواء والهباء فيقول عند تفسير قوله تعالى: (فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا):

"إِنَّ الْهَوَاءَ إِذَا خَالَطَهُ أَجْزَاءٌ ثَقِيلَةٌ أَرْضِيَّةٌ ثَقُلَ مِنْ لَفْظِهِ حَرْفٌ، فَأُبْدِلَتِ الْوَاوُ الْخَفِيفَةُ بِالْبَاءِ الَّتِي لَا يُنْطَقُ بِهَا إِلَّا بإطباق الشفتين بقوة ما؛ لأن في الباء ثقلا ما."[٤]

فالرازي – رحمه الله– يذهب إلى أن التناسب قائم بين الحروف والمعنى، وأنه معتبر، ويجعل من روافده مخرج الصوت نسقا وترتيبا، وصفة الصوت شدة ولينا وهذا مما لا يحتاج إلى بيان.

---

١) المثل السائر ١/١٢٤.

٢) النجم آية: ٤٨.

٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٩/٢٨٢ – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

٤) السابق ٢٩/٣٨٦.

السكاكي (المتوفى: ٦٢٦هـ)

ذكر السكاكي – رحمه الله– في مقدمة حديثه عن المجاز: "أن للحروف في أنفسها خواص بها تختلف، كالجهر والهمس والشدة والرخاوة والتوسط بينهما وغير ذلك، مستدعية في حق المحيط بها علما أن لا يسوي بينها، وإذا أخذ في تعيين شيء منها لمعنى أن لا يهمل التناسب بينهما؛ قضاء لحق الحكمة، مثل ما ترى في الفصم (بالفاء) الذي هو حرف رخو لكسر الشيء من غير أن يبين، والقصم (بالقاف) الذي هو حرف شديد لكسر الشيء حتى يبين، وفي الثلم (بالميم) الذي هو حرف خفيف ما يبنى لخلل في الجدار والثلب (بالباء) الذي هو حرف شديد للخلل في العرض. وفي الزفير (بالفاء) لصوت الحمار، والزئير (بالهمز) الذي هو شديد لصوت الأسد، وما شاكل ذلك. وأن للتركيب كالفَعَلان والفَعَلى(بتحريك العين) منهما مثل النَزَوَان والحَيَدي، وفعُل مثل شرف، وغير ذلك خواص أيضا، فيلزم فيها ما يلزم في الحروف، وفي ذلك نوع تأثير لأنفس الكلم في اختصاصها بالمعاني"[١]

فالسكاكي –كما ترى– لا يهمل هذا الجانب، بل يعول عليه في التفريق بين ما تقارب من المعاني؛ فها هو ينظر إلى قوة الصوت وضعفه رافدا في الدلالة على المعنى، كما يعتبر تتابع الحركات رافدا آخر من روافد العطاء الصوتي. وهذا الصنيع من رأس المدرسة السكاكية – التي يعول عليها في الدرس التقعيدي تعويلا رئيسا – يرشد بأهمية هذا الباب، وأنه ليس من المناسب ترك هذا الجانب من التناسب، وأنه لا يجمل أن يتوارى في الدرس البلاغي. ألا ترى كيف يهيب بالعالم المحيط بخواص الحروف ألا يسوي بينها، وألا يهمل التناسب بينها وبين ما قامت تلك الحروف لتعيينه من المعاني، ورد ذلك الأمر إلى مقتضيات الحكمة وحقها؟

---

١) مفتاح العلوم للسكاكي ٣٥٧ ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

ابن القيم: (المتوفى: ٧٥١هـ)

عني ابن القيم رحمه الله بالقيم الصوتية عناية ظاهرة حيث يقول: "والمناسبة الحقيقية معتبرة بين اللفظ والمعنى طولاً وقصراً، وخفة وثقلاً، وكثرة وقلة، وحركة وسكوناً، وشدة وليناً، فإن كان المعنى مفرداً أفردوا لفظه، وإن كان مركباً ركبوا اللفظ ، وإن كان طويلاً طولوه ، كالقطنّط والعشنّق للطويل، فانظر إلى طول هذا اللفظ لطول معناه، وانظر إلى لفظ بُحْتُر، وما فيه من الضم والاجتماع لما كان مسماه القصير المجتمع الخلق ، وكذلك الحديد والحجر والشدة والقوة ونحوها، تجد في ألفاظها ما يناسب مسمياتها ، وكذلك لفظ الدوران والنزوان والغليان وبابه، في لفظها من تتابع الحركة ما يدل على تتابع حركة مسماها . كذلك الدجال والجراح والضراب والأفاك في تكرر الحرف المضاعف منها ما يدل على تكرار المعنى"[١].

وضرب أمثلة على عناية العرب بذلك "وَأَنَّهُمْ فِي الْغَالِب يجْعَلُونَ الضمة الَّتِي هِيَ أقوى الحركات للمعنى الْأَقْوَى، والفتحة الْخَفِيفَة للمعنى الْخَفِيف، والمتوسطة للمتوسط، فَيَقُولُونَ: عزَّ يعَزُّ (بِفَتْح الْعين) إِذا صلب، وَأَرْض عزاز صلبة، وَيَقُولُونَ عزَّ يعِزُّ (بِكَسْرِهَا) إِذا امْتنع، والممتنع فَوق الصلب؛ فقد يكون الشَّيْء صلبا وَلَا يمْتَنع على كاسره، ثمَّ يَقُولُونَ عزَّه يعُزُّه(بضمها) إِذا غَلبه، قَالَ الله تَعَالَى فِي قصَّة دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَام ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[٢]، وَالْغَلَبَة أقوى من الِامْتِنَاع؛ إِذْ قد يكون الشَّيْء مُمْتَنعا فِي نَفسه متحصنا من عدوه وَلَا يغلب غَيره، فالغالب أقوى من الْمُمْتَنع فَأَعْطوهُ أقوى الحركات، والصلب أَضْعَف من الْمُمْتَنع فَأَعْطوهُ أَضْعَف الحركات، والممتنع الْمُتَوَسّط بَين المرتبتين فَأَعْطوهُ حَرَكَة الْوسط"[٣]

---

١) بدائع الفوائد ١٠٨/١

٢) سورة ص ٢٣

٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام المؤلف: ابن قيم الجوزية ص ١٤٨، المحقق: شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط الناشر: دار العروبة – الكويت الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ – ١٩٨٧

هذا، ومن يراجع كتبه – رحمه الله – لاسيما بدائع الفوائد وجلاء الأفهام يجد إشارات كثيرة إلى التناسب الصوتي مما ينم عن ذوق رفيع وإحساس بالغ بمواقع الأصوات وحركاتها وصفاتها وأثر ذلك كله على المعنى.

البقاعي: (ت ٨٨٥هـ)

عُرف البقاعي–رحمه الله– بعنايته الفائقة بوجوه التناسب وطرق التلاؤم، حتى سمّى تفسيره بنظم الدرر في تناسب الآيات والسور، وكان من تلك الوجوه: التناسب الصوتي، وأنا أذكر موضعا واحدا ينم عن عظيم اهتمامه بهذا الجانب:

ففي تأويله لمطلع سورة (طه) توقف عند تلك الحروف المقطعة، وعرّج على الأصوات وصفاتها بما يلتقي بمقصود السورة حيث يقول:

"مقصودها الإعلام بإمهال المدعوين، والحلم عنهم، والترفق بهم إلى أن يكونوا أكثر الأمم، زيادة في شرف داعيهم ﷺ ، وعلى هذا المقصد الشريف دل اسمها بطريق الرمز والإشارة، لتبيين أهل الفطنة والبصارة، وذلك بما في أولها من الحروف المقطعة، وذلك أنه لما كان ختام سورة مريم حاملاً على الخوف من أن تهلك أمته ﷺ قبل ظهور أمره الذي أمر الله به واشتهار دعوته، لقلة من آمن به منهم، ابتدأه –سبحانه– (بالطاء) إشارة بمخرجها الذي هو من رأس اللسان وأصول الثنيتين العليين إلى قوة أمره وانتشاره، وعلوه وكثرة أتباعه؛ لأن هذا المخرج أكثر المخارج حروفاً، وأشدها حركة، وأوسعها انتشاراً، وبما فيها من صفات الجهر والإطباق والاستعلاء والقلقلة إلى انقلاب ما هو فيه من الإسرار جهراً، وما هو فيه من الرقة فخامة، لأنها من حروف التفخيم، وأنه يستعلي أمره، وينتشر ذكره، حتى يطبق جميع الوجود ويقلقل سائر الأمم، ولكن يكون ذلك بما تشير إليه الهاء بمخرجها من أقصى الحلق على حد بعده من طرف اللسان مع طول كبير وتماد كثير، وبما فيها من صفات الهمس والرخاوة والانفتاح والاستفال والخفاء، مع مخافته وضعف كبير، وهدوء وخفاء عظيم، ومقاساة شدائد كبار، مع نوع فخامة واشتهار، وهو وإن كان اشتهاراً

يسيراً يغلب هذا الضعف كله وإن كان قوياً شديداً، وقراءة الإمالة للهاء تشير إلى شدة الضعف، وقراءة التفخيم – وهي لأكثر القراء – مشيرة إلى فخامة القدر وقوة الأمر، بما لهما من الانتفاخ، وإن رئي أنه ليس كذلك .

وإن كان معنى الحرفين: يا رجل، فهو إشارة إلى قوته وعلو قدره، وفخامة ذكره، وانتشار أتباعه وعموم أمره، وإن كانا إشارة إلى وطء الأرض فهو إلاحة إلى قوة التمكن وعظيم القدرة وبعد الصيت حتى تصير كلها ملكاً له ولأتباعه، وملكاً لأمرائه وأشياعه."[١]

وكذلك صنيعه في تأويل الحروف المقطعة في سورة مريم وغيرها وكل هذا يؤكد عظيم عنايته بالجانب الصوتي عناية فائقة.

السيوطي: (المتوفى: ٩١١هـ)

تناول السيوطي رحمه الله الدرس الصوتي مجليا فطرة العربي في سوق الأصوات موحية بمعانيها يقول:

"فانْظر إلى بديع مناسبةِ الألفاظ لمعانيها وكيف فَاوَتَت العربُ في هذه الألفاظ المُقْتَرَنة المتقاربة في المعاني، فجعلت الحرفَ الأضْعف فيها والألْين والأخْفَى والأسْهل والأهْمس لِمَا هو أدْنى وأقل وأخف عملا أو صوتا، وجعلت الحرفَ الأقْوى والأشد والأظهر والأجهر لِمَا هو أقوى عملا وأعظم حِسّاً. ومن ذلك المدّ والمطّ فإنَّ فعْلَ المط أقوى؛ لأنه مدٌّ وزيادةُ جَذْب فناسَب الطاء التي هي أعْلى من الدال."[٢]

أما المحدثون:

فقد عني بعض المحدثين بالدرس الصوتي وعولوا عليه في ضرورة فقه جوهر المعنى، والبحث يقف مع نموذجين من هؤلاء المحدثين للإشارة إلى بعض

---

١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي ٢٥٦/١٢، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي ٤٤/١ المحقق: فؤاد علي منصور الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

جهودهم في هذا الباب هما الشيخان : محمد عبد الله دراز ومحمود محمد شاكر رحمة الله عليهما.

أما الشيخ محمد عبد الله دراز فقد كان له مع القرآن في تأثيره الصوتي شأن ظاهر؛ حيث ذكر أن "أول ما يلاقيك، ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم: خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره."[١] فربط بين الشكل والجوهر، واللفظ والمعنى في التأليف الصوتي، وأبان أن تلك الاستجابة لم تكن للأصوات من حيث هي شكل ومظهر بل بما تحمل من مضمون وجوهر.

وفصّل بعض الروافد الصوتية التي شكلت النظام الصوتي البديع للقرآن الكريم حيث يقول:

"إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوعًا يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعًا بالقسط الذي يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس به آنًا بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى"[٢]

وهكذا ظل الشيخ دراز بذوقه الرفيع وحسه الشفيف يتدبر تلك الجوانب الصوتية في كلام الله تعالى.

وأما أبو فهر محمود محمد شاكر، فكتب ثلاث مقالات في مجلة المقتطف عنوانها: (علم معاني أصوات الحروف سر من أسرار العربية نرجو أن نصل إلى حقيقته في السليقة العربية) وقد أعيد نشر تلك المقالات في جمهرة مقالات محمود شاكر.

---

١) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم- المؤلف: محمد بن عبد الله دراز ص١٣٣، اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، الناشر : دار القلم للنشر والتوزيع الطبعة : طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٢) السابق ١٣٤.

يقول الشيخ أبو فهر – رحمه الله –:" أريد بقولي " معاني أصوات الحروف" ما يستطيع أن يحتمله صوت الحرف – لا الحرف نفسه – من المعاني النفسية التي يمكن أن تنهض بها موجة اندفاع من مخرجه ... وما يتصل بكلّ هذه من مقومات نعت الحرف المنطوق. وليست المعاني النفسية – أو العواطف أو الإحساس – هي كلّ ما يستطيع أن يتحمله صوت الحرف بل هو يستطيع أن يحتمل – أيضًا – صورا عقلية معبرة عن الطبيعة وما فيها من المادة، وما يتصل بذلك من أحداثها أو حركاتها أو أصواتها أو أضوائها أو غير ذلك...."[1]

وقد درس صوت الهمزة دراسة موسعة، ووعد –رحمه الله– أن يكتب كتابا في سر العربية، لكنه لم يتح له، وليته فعل؛ فإن ما سطّره في تلك المقالات أبان عن ملكة خاصة في التذوق الصوتي كان يمكن أن تكشف من أسرار العربية ما يمنح أبناءها مفتاحا للتذوق الصحيح. فرحم الله أبا فهر، وجزاه على نيته وحسن قصده خير الجزاء.

هذا وليس في طوق هذا التمهيد أن يستقصي كل من أشار إلى الدرس الصوتي من العلماء فضلا عن أن يستقصي كلام كل واحد منهم؛ فإن مثل هذا يتطلب بحثا مستقلا تأريخا وتأصيلا ونقدا .

وليس هذا الصنيع من أولئك العلماء وأضرابهم بالأمر العجيب؛ فإن اللغة العربية "في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات لا تنفصل من الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء. وهذه الخاصَّية في اللغة العربية ظاهرة من تركيب حروفها على حدة، إلى تركيب مفرداتها على حدة،

---

١) جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر ٧٠٨/٢ المؤلف: محمود محمد شاكر جمعها وقرأها وقدم لها: الدكتور/ عادل سليمان جمال، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة – جمهورية مصر العربية– الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م

إلى تركيب قواعدها وعباراتها، إلى تركيب أعرضها وتفعيلاتها فى بنية القصيد"[1] .

ولذا لم يغفل القدماء البحث عن أسرارها الصوتية بحثا عميقا حتى إن كثيف الطبع ليستشعر في صنيعهم تكلفا، وفي تحليلاتهم الصوتية تعسفا، ولو تأمل أقوالهم، وكيف أنهم كثيرا ما يعولون على السياق في ضبط الدلالة الصوتية لعلم سلامة وجهتهم ورهافة أسماعهم، ولأدرك أن رحابة ما يتعلق بتلك الأصوات من صفات وحركات ومدود وطول وقصر وغير ذلك كل ذلك يمنح المتدبر رحابة الربط بين الدال الصوتي والمدلول المعنوي الذي يقتضيه السياق.

وهذا البحث لعله محاولة في تبصر أضواء من التناسب الصوتي في أدعية الاستفتاح التي كان النبي -ﷺ- يفتتح بها صلاته لعل تلك المحاولة تكون لبنة صالحة في صرح البلاغة الصوتية نسأل الله التوفيق والسداد ؛ إنه وليذلك والقادر عليه.

١) اللغة الشاعرة المؤلف عباس محمود العقاد ص: ٩ – الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٩٥م.

الفصل الأول

جرْس الكلمة وأثره في التناسب الصوتي

المبحث الأول

صفات الحروف وأثرها في التناسب الصوتي

الكلمة المفردة هي اللبنة الأولى للبناء التركيبي كله؛ فإذا انسجم البناء، واتسق كان لأصوات الكلمات –فضلا عن الكلمات– دور رئيس في هذا الانسجام، وثَمّ روافد عديدة تعمل على انسجام الكلمة ليتأتى انسجام التركيب كله. من ذلك: صفات الحروف من جهر، وهمس، وشدة، ورخاوة ....ومنها مخرج الصوت، وأثر قربه وبعده، وتتابع الحركات وغير ذلك.

فلا ينفك الحرف المنطوق عن الصفات الملازمة له من جهر وهمس وشدة ورخاوة وغيرها، وهي تطرق السمع فتحمل في طياتها دلائل توحي بالدلالات، وخصائص تشي بالمعاني، ولنتأمل ذلك في بعض الفرائد النبوية الشريفة التي كان النبي ﷺ يفتتح بها صلاته بعد التكبير وقبل القراءة من ذلك :

(اللهم) وإيثاره في الدعاء :

آثر النظم النبوي العالي اصطفاء (اللهم) في أدعية الاستفتاح في غير ما موضع، حيث ذكرت في مجموع تلك الأدعية عشر مرات، من ذلك:

قوله ﷺ : **(اللَّهُمَّ باعِدْ بَيْنِى وبَينَ خَطايايَ كما باعَدتَ بَينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِى مِن خَطايايَ كما يُنَقَّى الثَّوبُ الأبيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغسِلنِى مِن خَطايايَ بالثَّلجِ والماءِ والبَرَدِ)**

وقوله ﷺ : **(اللَّهُمَّ أنتَ المَلِكُ لا إلَهَ إلا أنتَ، أنتَ رَبِّى وأَنا عَبدُكَ، ظَلَمتُ نَفسِى واعتَرَفتُ بذَنبِى، فاغفِرْ لِى ذُنوبِى جَميعًا...)**

وقوله: ﷺ **(سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمدِكَ، وتَبارَكَ اسمُكَ، وتَعالَى جَدُّكَ، ولا إلَهَ غَيرُكَ)**

وقوله ﷺ:**(اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِن... اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْت...).**

فاطرد الدعاء بهذه الصيغة: (اللهم)، وهي مركبة من علم الذات والميم المشددة آخرا، وللنحاة بحث متشعّب في هذا التركيب ... ومما اختلفوا فيه هذه الميم المشددة في آخره؛

فَذهب الخليل وسِيبَوَيْه إلى أنها زيدت عوضا من حرف النداء وَلذَلِك لَا يجوز عِنْده الْجمع بَينهمَا فِي اخْتِيَار الْكَلَام فَلَا يُقَال: (يَا اللَّهُمَّ)[1].

وَقيل: الْمِيم عوض عَن جملَة محذوفة وَالتَّقْدِير: يَا الله أُمنا بِخَير، أَي اقصدنا، ثمَّ حذف الْجَار وَالْمَجْرُور، وَحذف الْمَفْعُول فَبَقيَ فِي التَّقْدِير: يَا الله أُمَّ، ثمَّ حذفوا الْهمزَة لِكَثْرَة دوران هَذَا الِاسْم فِي الدُّعَاء على ألسنتهم فَبَقيَ: يَا اللَّهُمَّ.[2]

وَقيل: زيدت الْمِيم للتعظيم والتفخيم كزيادتها فِي زرقم لشديد الزرقة، وابنم فِي الابْن"[3]

وكون هذه الميم الزائدة دالة على التعظيم والتفخيم كأنه تعليل للرأيين السابقين، وهو يبرز ما لهذا الحرف من دلالة وإيحاء لا ينهض بهما المعوَّض عنه، سواء أكان حرف النداء وحده أم تلك الجملة المحذوفة معه. وهذا يؤكد ابتداء أثر الدلالة الصوتية والمعنوية للحرف، وإلا فلم كان هذا التعويض؟ وليس التخفيف وحده علة التعويض، بل ثم دلالة معنوية وصوتية انطوى عليها هذا الحرف؛ فالميم – كما قالوا– " تدل على الْجمع وتقتضيه ومخرجها يَقْتَضِي ذَلِك... فهي حرف شفهي يجمع النَّاطِق بِهِ شَفَتَيْه، فَوَضَعته الْعَرَب

---

١) ينظر الكتاب لسيبويه ١٩٦/٢

٢) ينظر المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (شرح ألفية ابن مالك) المؤلف: أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي ٢٩٢/٥ المحقق: د. عبد الرحمن بن سليمان وآخرون الناشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى – مكة المكرمة الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م.

٣) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المؤلف: علي بن محمد الأُشْمُوني ٣١/٣ – االناشر: دار الكتب العلمية بيروت– لبنان الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ– ١٩٩٨مـ

علما على الْجمع، فَقَالُوا للْوَاحِد: أَنْت، فَإِذا جاوزوه إِلَى الْجمع قَالُوا: أَنْتُم وَقَالُوا للْوَاحِد الْغَائِب: هُوَ فَإِذا جاوزوه إِلَى الْجمع قَالُوا: هم... وَيَقُولُونَ للشَّيْء الْأَزْرَق أَزْرَق فَإِذا اشتدت زرقته واستحكمت قَالُوا زرقم وَيَقُولُونَ للكبير الاست: ستهم.

وَتَأمل الْأَلْفَاظ الَّتِي فِيهَا الْمِيم كَيفَ تَجِد الْجمع معقودا بهَا، مثل: لمّ الشَّيْء يلمه إِذا جمعه ..وَمِنْه: تمّ الشَّيْء وَمَا تصرف مِنْهَا، وَمِنْه بدر التم إِذا كمل وَاجْتمعَ نوره ..وَمِنْه الْأُم، وَأم الشَّيْء أَصله الَّذِي تفرع مِنْهُ فَهُوَ الْجَامِع لَهُ، وَبِه سميت مَكَّة أم الْقرى، والفاتحة أم الْقُرْآن، واللوح الْمَحْفُوظ أم الْكتاب... وَمِنْه: رم الشَّيْء يرمه إِذا أصلحه وَجمع مُتَفَرِّقَه، وَمِنْه: ضم الشَّيْء يضمه إِذا جمعه، وَمِنْه: همُّ الْإِنْسَان وهمومه وَهِي إِرَادَته وعزائمه الَّتِي تَجْتَمِع فِي قلبه..."[1] إلى غير ذلك من الأصول المعقودة على الميم، والدالة على الجمع.

"وَإِذا علم هَذَا من شَأْن الْمِيم فهم ألحقوها فِي آخر هَذَا الِاسْم الَّذِي يُسْأَل الله سُبْحَانَهُ بِهِ فِي كل حَاجَة وكل حَال؛ إِيذَانًا بِجَمِيعِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاته؛ فالسائل إِذا قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك كَأَنَّهُ قَالَ: أَدْعُو الله الَّذِي لَهُ الْأَسْمَاء الْحسنى وَالصِّفَات العلى بأسمائه وَصِفَاته، فَأتى بِالْمِيم المؤذنة بِالْجمعِ فِي آخر هَذَا الِاسْم؛ إِيذَانًا بسؤاله – تَعَالَى– بأسمائه كلهَا "[2] ولاستغراقه أيضاً لجميع أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته لا يجوز أنْ يوصف؛ لأنها قد اجتمعت فيه، وهو حجّةٌ لما قالَ سيبويه في منعِهِ وَصْفَهُ."[3]

وَهَذَا القَوْل ..جَاءَ عَن غير وَاحِد من السّلف "قَالَ الْحسن الْبَصْرِيّ: (اللَّهُمَّ) مجمعُ الدُّعَاء، وَقَالَ أَبُو رَجَاء العطاردي: إِن الْمِيم فِي قَوْله: (اللَّهُمَّ) فِيهَا تِسْعَة

---

١) جلاء الأفهام ١٤٧

٢) السابق: ١٤٧

٣) الفوائد العجيبة في إعراب الكلمات الغريبة المؤلف: ابن عابدين، الحنفي – ص: ٢٩– المحقق: د. حاتم صالح الضامن الناشر: دار الرائد العربي – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

وَتسْعُونَ اسْما من أَسمَاء الله تَعَالَى، وَقَالَ النَّضر بن شُمَيْل: من قَالَ: (اللَّهُمَّ) فقد دَعَا الله بِجَمِيعِ أَسْمَائِهِ"[1]

وهذا الجمع الدال على التفخيم والتعظيم الذي نص عليه الأثر، وأبان عنه النظر، تلقاه في أدعية الاستفتاح ظاهرا متسعا، حيث ترى فيها ثناء جامعا، ودعاء جامعا، واعترافا جامعا، وتأمل ففي الثناء جمع للرب – جل جلاله – ما له من التوحيد، والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، والتنزيه، والتقديس، والتبريك، وهذا واضح من شيوع هذه المعاني تصريحا في أدعية الاستفتاح، ومن إيراد أسمائه الحسنى وصفاته العلى .

كما ترى في الاستفتاح دعاء جامعا يجمع للعبد خير الدنيا والآخرة من طلب المغفرة، والمبالغة في التنقية من الذنوب والخطايا، وعموم الهداية، وعموم الرزق كما في قوله: اللهم باعد بيني وبين خطاياي... وقوله:(**فاغْفِرْ لِى ما قَدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرتُ وما أعلَنت...**) وقوله: (**اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلا أَنْتَ، اصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلا أَنْتَ**) وقوله: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي**) عشرا ويقول: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الضِّيقِ يَوْمَ الْحِسَابِ**) **عَشْرًا**.

كما تبصر اعترافا جامعا بالعجز والتقصير والتبرؤ من كل حول وقوة؛ وتأمل فقد جمع العبد في استفتاحه الاعتراف بخطاياه فجاء بها جمعا(خطاياي)، وكررها في استفتاح واحد ثلاثا، وأضافها إلى نفسه، ولما ذكر ذنبه بصيغة الإفراد وصفه بما يفيد أنه قصد الجنس فقال: (**فَاغْفِرْ لِي ذَنْبِي جَمِيعًا**) وقد أفاد الجمع في موضع آخر بطريقة أخرى فقال: (**فاغفِرْ لِى ما**

---

١) ينظر البحر المحيط في التفسير المؤلف: أبو حيان الأندلسي ٨٥/٣ ، المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠ هـ ، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف: ابن عطية الأندلسي ٤١٧/١ المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ، وجلاء الأفهام ١٤٧

قَدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرتُ وما أعلَنت...) فأفاد جميع ذنوبه في جميع الأزمنة، وسائر الأحوال، ما ظهر منها وما بطن، ما علم منها وما لم يعلم وهذا تأتى من اسم الموصول العام (ما).

فهذا الجمع في الثناء، والجمع في الدعاء، والجمع في الاعتراف لاءمه في الانسجام الصوتي والتشاكل اللفظي هذا التركيب البديع (اللهمّ) فحروفه على التفخيم؛ حيث اللام المدغمة المفتوحة التي تملأ الفم، مع مد بعدها يطيل الصوت بهذا التفخيم، وهاء مضمومة للنداء والضم أفخم الحركات، ثم تأتي ميمان مدغمتان لتجمع هذا التفخيم، وتضم إليه تلك الغنة الشجية التي تجمع ضراعة القلب، وتلم شعثه، وتلملم نفسه المبعثرة في زخم الدنيا ومشاغلها؛ ليقبل على أعظم مطلوب، وأجل مرغوب، وأعز مرهوب، وأرحم محبوب، في أجل مقام، وأعظم موقف يناجي فيه العبد ربه، فتخرج مناجاته – وقد استحضر جلال الملك وعظمته – وعليها من فخامة الصوت، وجمال المبنى، وجلال المعنى ما يرقّي العبد، ويصعد به إلى الملأ الأعلى ليخاطب رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين بهذا الخطاب الجليل :إياك نعبد وإياك نستعين. فلله كم لهذا التركيب من انسجام تام، وتوافق بديع أذهلَنا عنه قلة التدبر وغلبة الغفلة.

ثم ترى تناسبا صوتيا وانسجاما لفظيا في كلمات كل استفتاح

فلنتأمل قوله اللهم باعد ....الحديث

نرى جذر هذا الاستفتاح متعلقا بالخطايا تعلقا صريحا في جمله الثلاثة التي تركب منها، ولذا تكررت (الخطايا) بوحدة بنائها حيث مجيئها جمعا مضافة إلى ياء المتكلم ثلاث مرات ولذا بنيت صوتيا على إشباع دلالتها فلاءم قبح الخطايا واستبشاعها وثقلها صوتا الخاء والطاء؛ أما الخاء فهو: "حرف حلقى جافّ غليظٌ"[1]، والطاء أقوى حروف العربية، ليس فيها ضعف أي ضعف، بل

١) جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر ٧٢٢/٢.

لا ترى إلا الجهر والشدة والاستعلاء والاطباق والقلقلة وكل هذه الصفات تتلاقى مع شدة الذنوب وثقلها.

نعم، في الخاء بعض الرقة حيث الرخاوة والهمس وذلك يناسب – والله أعلم– بداية الخطيئة حيث يتوارى فاعلها، ويقدم رجلا ويؤخر أخرى وهو ينازع الشيطان، وينازعه الشيطان، فإذا تلبّس بها، وغشاه سوادها عَمِي، فلم يعد يبالي، فجاهر، فاشتد وزره، وأطبق عليه، فجاءت الطاء حاكية حال التلبس بالخطيئة وإطباقها عليه، بل وأخذت الخاءَ في تضاعيف إطباقها وتلافيف شدتها، فأزالت همسها ورخاوتها وطغت عليها .

فإن قيل: إن الخطايا هي أثقل ما يغشى العبد ويقيده، فكيف لاءمها الفتح في حروفها، والفتح – كما قيل – أخف الحركات؟ قيل: تقرير السؤال عين الجواب، فإن التناسب قد يأتي بالتوافق وهو كثير، وقد يأتي بالتقابل، فيحمل للثقيل أخف الحركات ليسرع في إزالته وطرحه؛ استثقالا له ونفرة منه. كما قال الرضي – رحمه الله – وهو يعلل سر اختيار الفتحة في عين المضارع إن كان من حروف الحلق، ووقع عينا أو لاما فقال: "إن حروف الحلق سافلة في الحلق يتعسر النطق بها، فأرادوا أن يكون قبلها إن كانت لاماً الفتحة التي هي أخف الحروف، فتعدل خفها ثقلها"[1] فتأمل قوله: فيعدل خفها ثقلها، فهذا ثقل حسي عند النطق بها، وما نحن فيه ثقل معنوي، والله أعلم .

وقد تعلقت هذه الخطايا بثلاثة أفعال (باعد، نقني، اغسلني) ولنتأمل هذه الأفعال كيف تلاقت معانيها، فتجاوبت أصواتها؛ ليتحقق التواصل التام، والإمساس البالغ بين اللفظ والمعنى، وهذه الأفعال هي (باعد ، نقني، اغسلني) والمباعدة والتنقية والغسل تلتف حول طلب البراءة من الذنوب والخطايا، ما وقع منها، وما لم يقع و(العين والقاف والغين) أصوات ظاهرة ناصعة في تلك

١) شرح شافية ابن الحاجب المؤلف: محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي، المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد وآخرون– الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – عام النشر: ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥م.

الأفعال، وثلاثتها تتجاوب مع (خاء) خطاياي المطلوب محوها وإزالتها، أما العين والغين فهما مع الخاء أخوات في المخرج، وأما القاف فهي أقرب ما يكون منها، كما قال ابن جني "فجاز أن تشبه القاف لقربها من حروف الحلق بها"[١] فتناسقت أصوات هذه الكلمات (باعد نقني اغسلني) مع (خطاياي) في التقائها في مخرج الحلق، وحروف الحلق سافلة في الحلق يتعسر النطق بها، وفي هذا العسر تجانس لما يستشعره العبد من ثقل ذنوبه، وشدتها على نفسه، وعظيم ألمها؛ ولذا جاءت (باعد ونقني واغسلني) مشتملة على حرف من حروف الشدة؛ ليتم التناسب الجزئي والكلي أو التناسب الإفرادي والتركيبي؛ ففي (باعد) صوتا الباء والدال وفيهما من الشدة والجهارة والقلقلة ما يكشف عن درجة المباعدة التي يرجوها العبد يقول أحد الباحثين: "فإذا لُفظ هذا الحرف منفرداً ممدود الصوت (با)، لم نجد ما هو أصلح منه لتمثيل الأشياء والأحداث التي تنطوي معانيها على الاتساع والضخامة والارتفاع، بما يحاكي واقعه انفتاح الفم على مداه عند خروج صوته من بين الشفتين"[٢] وتأمل حاجة العبد في التبرؤ من خطاياه وإقصائها فجاءت الباء مفتوحة يتلوها مد طويل يصور هذه المباعدة صوتا وحسا.

أما الدال التي ختم بها هذا الفعل فهو صوت "يدل على الصلابة والقساوة وكأنه من حجر الصوان؛ ليكون بذلك أصلح الحروف للتعبير عن معاني الشدة والفعالية الماديتين"[٣] يزيده شدةً وقوعه آخر الفعل ساكنا، فظهر صوته،

---

١) الخصائص ٣٦٦/١

٢) خصائص الحروف العربية ومعانيها د. حسن عباس ص١٠١ ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٨م

٣) من ذلك: دبأ فلانا بالعصى ضربه بها (دحبه) دفعه.(دحجه) عركه (دحمه) دفعه بشدة .(الدرق) الصلب من كل شيء(دشّ الحب) دقّه و(دهكه) طحنه وكسره ينظر خصائص الحروف العربية ص ١٠١.

وازدادت قلقلته، واشتدت صلابته؛ ولذا لاءم أن يأتي مع الخطايا التي لم تقع؛ لتناسب شدة الصوت شدة البعد حتى لا تزداد ذنوبه، وتكثر خطاياه والله أعلم.

والقاف في(نقني) وهي تدل على الشدة والقوة والفعالية والانفجار"[١] ولها في هذا الفعل طغيان ظاهر؛ لما تتصف به من شدة وجهر وقلقلة واستعلاء، فكيف وقد ضعّفت؟ إنها لتحكي شدة وقع الخطيئة، وجليل خطرها، وفي المقابل تظهر شدة لهفة الداعي الخائف، وتصور جؤاره وهو يلح في طلب تنقية نفسه من تلك الخطايا.

والغين في (اغسلني) بما فيها من "الدلالة على المحو والبعثرة، إن صورته الصوتية وهو يدغدغ سقف الحلق عند خروجه، لهي أشبه ما تكون بدغدغة محسة من حديد تزيل غباراً عالقاً بجلد بعير. والسين بدلالتها على السعة، واللام بما فيها من ليونة ومرونة بعد التماسك والالتصاق"[٢] تشخص معنى إزالة الأقذار والأوساخ الحسية والمعنوية العالقة في المحل المراد غسله في ليونة ومرونة بعد التصاق وتماسك، وهذا يحكي صوت الذنوب وهي تزال عن العبد .

وهكذا نلاحظ كيف احتوى كل فعل من هذه الأفعال الثلاثة الواردة في الدعاء على صوت أو أكثر من أصوات الشدة، وهي تمثل حاجة العبد ولهفته إلى محو خطاياه والتخلص منها أشد ما يكون الخلاص، وأنقى ما يكون الغسل، وبهذا تنسجم الأصوات لانسجام المعاني فيعظم وقع المعنى في النفس وتأنس به.

وبالتأمل في أصوات هذا الاستفتاح نرى أكثر من عشرين حرفا من الحروف الموسومة بالشدة كالباء التي تكررت تسع مرات، والقاف المكررة خمسا، والدال أربعا، والطاء ثلاثا، وغيرها مما يؤذن بدقيق التناسب؛ حيث

١) خصائص الحروف العربية ومعانيها ١٤٤.
٢) السابق ٧٩.

صورت هذه الشدة في الصوت عظيم إحساس الداعي، وشديد لهفته، وقوة إشفاقه من خطاياه التي أثقلته، وذنوبه التي ناء بحملها، فها هو يجأر طلبا للمباعدة والتبرؤ منها فتجاوبت أصوات الشدة والجهر والقلقلة مكررة (الباء والقاف والدال والطاء) تعلن هذا الإحساس الطاغي على العبد الداعي المثقل بالخطايا.

وفي المقابل نرى استفتاحا آخر يقابل هذا في نوع الذكر، ولون المناجاة، وذلك قوله ﷺ: **(سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمدِكَ، وتَبارَكَ اسمُكَ، وتَعالَى جَدُّكَ، ولا إلَهَ غَيرُك)**

هذا الذكر ثناء على الله – تعالى– بنفي النقائص، وثبوت المحامد، وتمام البركة، وكمال التعالي والجد والعظمة، والاستفتاح الأول دعاء من العبد لربه بالتنقية من الذنوب والخطايا، وقد تجاوبت الأصوات بما يلائم كلًّا:

ففي هذا الثناء كثرت حروف الرخاوة التي يجري الصوت عند النطقِ بها؛ لضعف الاعتماد على مَخرجه، فجرى النطق به في لين. وقد بلغ عدد الأصوات التي تتصف بالشدة ثلاثة عشر صوتا، في حين أن الأصوات الرخوة بلغت ثلاثة وعشرين صوتا، وهذا لا شك يعطي التسبيح والتحميد ما يلائمه من خشوع وإخبات يعين العبد على استحضار جلال المسبّح وعظمة المحمود –تبارك وتعالى– حيث يجري الصوت وقد غلب ضعفُه قوتَه؛ فها هي حروف الرخاوة تغلب حروف الشدة، وحروف الترقيق والانفتاح تملأ الاستفتاح، فلا ترى من حروف التفخيم (خص ضغط قظ)، ولا من حروف الإطباق شيئا، كل هذا يتجاوب ومقام الذكر والثناء، وما يجب أن يكون عليه الذاكر من رقة قلب، وسكون جارحة، حتى غدت تلك الأصوات تنبعث من الجوف فلا تهز مخارجها هزة شديدة، وهذا من بالغ التناسب ودقيق بلاغة النبي ﷺ . هذا، وإن كنا نرى غلبة حروف الجهر حروف الهمس؛ حيث بلغت حروف الهمس اثني عشر حرفا بالمكرر، والباقي حروف جهر، وهذا –لا شك– يعمل على التوازن

بين ظهور الأصوات وخفائها، فتسمع الأصوات جاهرة برخاوتها وانفتاحها ورقتها .

وجذر هذا الاستفتاح التسبيح والتحميد فهما مجمع الذكر، والتسبيح والتحميد من أشهر الأذكار وأكثرها ترددا في اليوم والليلة مطلقا ومقيدا؛ ففي الصلاة تسبيح وتحميد يملآن جنباتها بدءا من استفتاحها وقيامها، ومرورا بركوعها وسجودها، وانتهاء بالأذكار دبر الصلاة، فضلا عن مطلق التسبيح والتحميد في اليوم والليلة؛ فكان ذلك مدعاة إلى بنائه على سلاسة اللفظ، وجريانه على أعذب الأصوات وأخفّها، وفي الحديث: **(كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ)** فتأمل قوله: (خفيفتان على اللسان) وذلك "للين حروفهما وسهولة مخارجهما فالنطق بهما سريع وذلك؛ لأنه ليس فيهما من حروف الشدة المعروفة، ولا من حروف الاستعلاء أيضا سوى حرفين "الباء والظاء" وقد اجتمعت فيهما حروف اللين الثلاثة "الألف والواو والياء"، وبالجملة: فالحروف السهلة الخفيفة فيهما أكثر من العكس "[1]

وقد تكرر التحميد في الاستفتاح حيث ورد في ستة استفتاحات، وتكرر في استفتاح واحد أربع مرات، وذلك قوله: **اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ أنتَ نورُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ، ولَكَ الحَمدُ أنتَ قَيِّمُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ، ولَكَ الحَمدُ أنتَ مَلِكُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ، ولَكَ الحَمدُ أنتَ الحقُّ،...**" وما أكثر التحميد في الأذكار على وجه العموم، وقد بني لفظه من (الحاء والميم والدال) أما الحاء فهو صوت من وسط الحلق ليس فيه من صفات الشدة شيء، بل هو مهموس رخو منفتح مستفل، فهذا مبدؤه وقد اقترن بالميم، وهو صوت رخو منفتح رقيق ذلق، لكنه يتصاعد شيئا ما بالجهر والغنة، وتزداد

---

١) المنهل الحديث في شرح الحديث ٢٧٥/٤ المؤلف: الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين الناشر: دار المدار الإسلامي الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م.

الشدة درجة أعلى، فتأتي الدال بالجهر والشدة والقلقلة، فتأمل هذا النظم الحرفي بهذا الترقي البالغ، فمن همس تام، إلى جهر، ثم إلى جهر وشدة وقلقلة.

وإذا كان الحمد هو الثناء على المحمود مع المحبة والتعظيم فقد بني من أصوات تدل على معناه، فأوله على الحاء وهو من الحلق أول المخارج، فهو إذن من أقرب الأصوات إلى مصدر الحب والاعتراف بالفضل وهو القلب، وقرن بالميم التي هي من الشفتين، وهذا آخر المخارج ، فجمع هذان الحرفان أول المخارج وآخرها، فإذا انضم إلى ذلك ما قرر من أمر الميم ودلالتها على الْجمع، ونظر إليه نظر تدبر علم أن هذه مناسبة جليلة؛ إذ لاءم هذا الجمع ما يقتضيه الحمد الصادق من صدوره من القلب موطن الاعتقاد، مع النطق به، فيحمد –سبحانه– على أسمائه وصفاته، كما يحمد على جميع أقضياته، وله الحمد في الأولى والآخرة، حمد نفسه سبحانه، وحمده ملائكته، وحمده جميع أنبيائه وأوليائه، وحمده أهل الجنة، بل وحمده أهل النار لما رأوا يوم القيامة من عدله وقضائه.[١]

فالحمد أَوسع الصفات ...؛ لأَن جميع أَسمائه –تبارك وتعالى– حمد، وصفاته حمد، وأَفعاله حمد، وأَحكامه حمد، وعدله حمد، وانتقامه من أَعدائه حمد، وفضله فى إحسانه إلى أَوليائه حمد، والخلق والأَمر إنما قام بحمده، ووجد بحمده، وظهر بحمده وكان الغاية هى حمده، فحمده سبب ذلك، وغايته، ومظهره، وحامله، فحمده روح كل شيء، وقيام كل شيء بحمده"[٢]

---

١) وهو المشار إليه في قوله تعالى:" وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين". فإن بناء الفعل(قيل) لما لم يسم فاعله يدل على عموم القائلين، فكل من قضي بينهم بالحق يقول: الحمد لله رب العالمين.

٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١٢٥ ابن قيم الجوزية، الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر – الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ.

فهذا العموم والجمع في الحامدين، والعموم والجمع في المحمود عليه، والعموم والجمع في أدوات الحمد، يلتقي مع أحسن حال بما بني عليه اللفظ من أول المخارج وآخرها كما يلتقي بتلك الميم التي وقعت قلبا فيه بدلالتها على الجمع والضم الذي تساوق في جهات الحمد.

ومن جليل المناسبة أن الحمد مبني على الحب، ولا يتحقق إلا به، وقد صيغ الحب صوتيا على سَنن قريب من بناء الحمد، يقول ابن القيم –رحمه الله– في تذوق هذا اللفظ وما بني عليه:

"وَوَضَعُوا لِمَعْنَاهَا (أي المحبة) حَرْفَيْنِ مُنَاسِبَيْنِ لِلْمُسَمَّى غَايَةَ الْمُنَاسَبَةِ "الْحَاءَ" الَّتِي هِيَ مِنْ أَقْصَى الْحَلْقِ، وَ "الْبَاءَ" الشَّفَوِيَّةَ الَّتِي هِيَ نِهَايَتُهُ. فَلِلْحَاءِ الِابْتِدَاءُ، وَلِلْبَاءِ الِانْتِهَاءُ. وَهَذَا شَأْنُ الْمَحَبَّةِ وَتَعَلُّقُهَا بِالْمَحْبُوبِ. فَإِنَّ ابْتِدَاءَهَا مِنْهُ وَانْتِهَاءَهَا إِلَيْهِ."[1]

فإذا رأيت عمل الحاء والميم في الحمد وما دلتا عليه، وأبصرت ظلالهما، وقد انتهى الصوت من الحلق إلى الميم في رقة حانية، وبحة هادئة سَرَتْ مع الحاء من القلب بعدما شهدت بصدق اعترافه حتى التقت بالشفتين فانضمتا؛ لتعلن انضمامها وتواطأها مع القلب، وفي سكون الميم سكون العبد الحامد الذي يستشعر عظمة ربه وجلال نعمه؛ فيسكن القلب، وتخشع الجوارح؛ لأن قوله: (الحمد لله) نعمة من الله هي أفضل من العطية التي حمد عليها، فإذا اجتمع هذا وذاك جاءت (الدال) في شدة وجهر؛ لتعلن تمام الحمد واكتماله في صفاء ووضوح لا شوب فيه ولا غمغمة، ولذا كان أنصع أصوات الحمد وأشده.

هذا شيء مما تراه في الانسجام الصوتي لبنية الحمد المكرر بصورة لافتة في أدعية الاستفتاح حتى غدا عمودا من أعمدة الاستفتاح بل من سائر

---

١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين المؤلف: ابن قيم الجوزية ١٢/٢ المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

الأذكار وهو من أحب الكلمات إلى الله، وهو أول الكتاب المجيد وآخر دعاء أهل الجنة وقد بني على ما رأيت.

ولنتأمل لفظ (سبحان) وهو أيضا من مرتكزات الاستفتاح بل وسائر الأذكار، وقد بني على هيئة قريبة من بنية الحمد مع تنوع، فابتدأ بناؤه بصوت صفيري مضموم؛ ذلك أن التسبيح معناه التنزيه والتبرئة والبعد عن كل نقص وشَيْن و"حرف السين يوحي بالحركة والطلب والبسط، وذلك عندما يقع في أوائل الألفاظ"[١] فهي إذن حركة وطلب يقتضيان تمام المباعدة عن كل نقص وذم، "قال ابن شميل: رأيت في المنام كأن إنسانًا فسر لي (سبحان الله)؛ فقال: أما ترى الفرس يَسْبَح في سُرْعَته؟ وقال: سبحان الله: السرعةُ إليه، والخفة في طاعته، وجمَاعُ معناه بُعْدُه –تبارك وتعالى– عن أن يكون له مِثْل، أو شريك، أو نِدّ، أو ضِدّ."[٢] فكانت السين في غاية المناسبة .

وتأمل قول : (الخفة في طاعته) وتأمل ما عليه صوت السين من صفات الرخاوة والانفتاح والترقيق تجد وقعها من أحسن المواقع وألطفها، وقد عاونه على البسط والسعة زيادة الألف والنون في آخر المصدر، وهي دالة على الامتلاء بصفة التنزيه والتبرئة والمبالغة فيها ؛ فالألف باستطالتها، والنون بملازمة فتحتها وغنتها. أما الحاء فهي هي بما تحمل من رقة ولين على ما رأيت في الحمد، لكنها لم تكن أولا بل مسبوقة بالباء الشفوية، وكأن الأمر هنا على خلافه هناك في الحمد، فهناك قدم الحلقي على الشفوي، وهنا العكس؛ لأن الحمد إثبات للمحامد، والتسبيح نفي للنقائص؛ فدل على التقابل بينهما بتقابل في ترتيب مخرجيهما وهذا من أسرار العربية.

---

١) خصائص الحروف العربية ومعانيها ص: ١١٤

٢) البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج ٣٢٢/٩ ، المؤلف: محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، الناشر: دار ابن الجوزي الطبعة: الأولى، (١٤٢٦ – ١٤٣٦ هـ).

والمتأمل في هذا الذكر **(سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمدِكَ، وتَبارَكَ اسمُكَ، وتَعالَى جَدُّكَ، ولا إلَهَ غَيرُكَ)** يجد هذه الرخاوة واللين غالبة على مجموع أصواته، غير أنه يجد لفظا ظاهر الشدة، جهير النبر وهو لفظ (جدُّك) في قوله: **(وتَعالَى جَدُّكَ)**، حيث يرى أصوات حروفه بنيت على الشدة وهي تحاكي دلالته وتطابقه؛ فالجيم والدال من حروف الشدة والجهر والقلقلة، وهي من الصفات القوية التي ينقطع معها جريان النفس؛ لقوة الاعتماد عليه، كما يمتنع معها جريان الصوت لقوته أيضا؛ وبهذا يظهر الصوت كاملا شديدا، وهذا يلائم معنى العظمة والجلال، فإذا انضم إلى ذلك إدغام الدال فيكون كما قال ابن جني: "أقوى لصنعتها، وأدلّ على المعنى الذي أريد بها"[١] من علو العظمة والجلال علوا لا نظير له، وهذا يلائمه مجيء فعله المسند إليه مبنيا على (تفاعَل) وهو قوله: **(تَعَالَى)**، وهذه الصيغة تفيد الغلبة والتفرد في الصفة، فالتأم –على ما ترى– التصريح بفعل العلو (تعالى) مادة وصيغة حيث جاء على (تفاعل) وفيه ما فيه، وبنيت حروفه على الفتح، فازداد الصوت مدًا وإطالة، ثم أسند إلى فاعله (جدك) فاقترن العلو بالعظمة إسنادا، وبني من حروف الشدة والجهارة والقوة، وتحركت الدال الشديدة بأعظم حركة وأقواها، وهي الضم، فبرز المعنى المراد في أنصع صوت وأقواه وأشده. وهذا يؤكد "أنَّ جرس الكلمة رافد رئيسيّ من روافد الدلالة على معناها."[٢] ولهذا قال الشراح معنى (تعالى جدك) "أي علت عظمتك على عظمة كل أحد غيرك[٣]. وقال ابن الأثير رحمه الله: معنى "تعالى جدك": علا جلالك وعظمتك."[٤]

---

١) الخصائص ١٦٥/٢

٢) العزف على أنوار الذكر ٢١٩

٣) شرح سنن النسائي المسمى «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى، ٣٨٢/١١ ،المؤلف: محمد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي الوَلَّوِي الناشر: دار آل بروم للنشر والتوزيع – الطبعة: الأولى.

٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٤٤/١ المؤلف: ابن الأثير ، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي.

وتأمل قوله ﷺ في استفتاح آخر:

(اللَّهُ أَكبَرُ كَبيرًا، والحَمدُ للَّهِ كَثيرًا، وسُبحانَ اللَّهِ بُكرَةً وأَصيلًا)

واضح من سياق هذا الاستفتاح ومفرداته الدلالة على الكثرة والمبالغة، وهذا متأتٍّ من المفردات والصيغ والبِنَى، وهذا بيّن؛ فإن التصريح بمادتي الكبر والكثرة نصٌّ في هذه الدلالة، وبنية أفعل وفعيل في(أكبر – كبيرا – كثيرا) دالة على الزيادة في المعنى، وزيادة الألف والنون في (سبحان)، والتعبير بالمصدر في الحمد والسبحان، والتأكيد بقوله: (كبيرا وكثيرا) سواء أكانا منصوبين على المصدرية، أو على أن كبيرا حال، ثم بتعميم الأوقات؛ حيث قال: (بكرة وأصيلا) والمقصود سائر الأوقات وعموم الأزمان[1]، كل هذا يوجه السياق للدلالة على الكثرة والتعظيم والإجلال، وقد وقفنا على شيء من دلالة التسبيح والتحميد، وقد اقترن بهما هنا التكبير بصيغته العَلَم، وهي قوله: (الله أكبر) وقوله: أكبر "أفعل تفضيل يقتضي كونه أكبر من كل شيء بجميع الاعتبارات فالله –سبحانه– أكبر من كل شيء ذاتا وقدرا ومعنى وعزة وجلالة، فهو أكبر من كل شيء في ذاته وصفاته وأفعاله، كما هو فوق كل شيء، وعال على كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل من كل شيء في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا يساويه شيء في شيء من ذلك"[2] لهذا كله كان من تمام المناسبة أن تكثر أصوات الشدة والقوة في هذا الاستفتاح فتصبح صفات الحروف من روافد إشباع الدلالة وتأكيدها. فها هي (الكاف) تتردد أربع مرات

---

١) ينظر بذل المجهود في حل سنن أبي داود المؤلف: الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ١٣٠/٤ اعتني به وعلق عليه: الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي الناشر: مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات الإسلامية، الهند الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م.

٢) الصواعق المرسلة ابن قيم الجوزية ١٣٧٨/٤ ، ١٣٧٩ المحقق: علي بن محمد الدخيل الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

في هذا الاستفتاح الموجز، "وصوته يوحي بشيء من الخشونة والحرارة والقوة والفعالية، وإذا لفظ بصوت عالي النبرة وبشيء من التفخيم والتجويف فإنه يوحي بالضخامة والامتلاء"[1] فتأمل كيف مثُل هذا الصوت في لفظ (أكبر- كبيرا- كثيرا- بكرة) فلاءم الصوت المعنى.

وقد عاونه في إفادة الشدة والجهر الباء التي تكررت هي الأخرى أربع مرات (أكبر- كبيرا- بكرة – سبحان)، وهذا الصوت يحمل من الشدة والجهر والقلقلة ما يؤذن بقوة ما يبنى منه، وهذا ظاهر في الكلمات التي ورد فيها في هذا الاستفتاح .

وكذلك الهمزة التي ترددت نطقا ثلاث مرات(الله – أكبر- أصيلا) هي الأخرى تحمل دلالة الشدة والجهر، واللام بتضعيفها وتفخيمها في لفظ الجلالة المتكرر مع كل جملة من جمل هذا الاستفتاح ، وكذلك صوت الصاد في (أصيلا) ثم في انطلاق صوت المد الذي يستطيل في نهاية كل جملة (كبيرا – كثيرا – أصيلا) معلنا ظهور الصوت وجهارته وامتلاءه، كل هذا يتناسق مع هذا الذكر الذي بني علي إفادة المبالغة والتكثير التي امتلأ بها، فكما دل عليها بمفرداته وصيغها وبنيتها دل عليه بأصوات مفرداته .

هذا، وصيغة التكبير قد وردت في أربع صيغ من صيغ الاستفتاح، وقد تكررت في إحداها عشر مرات، وهذا في غاية المناسبة لاستفتاح الصلاة؛ لأنها مفتاح آذانها، وعلَم تحريمها، وذكر الانتقال بين أركانها، وفي أذكار ختامها، بل وهي من أحب الكلمات إلى ربنا -تبارك وتعالى- فناسب أن تبنى من أصوات قوية تؤدي دلالتها على أحسن حال، ثم تناسب موضعها في الثناء ومحلها في الإعلان؛ حيث الأذان ومبناه على الإعلان والإعلام، ثم موضعها في تكبيرات الانتقال، ثم ترادها عند رؤية ما يسر من إعجاب أو غيره ... كل هذا تصوره الهمزة والباء والكاف، وكلها أصوات شديدة، وتختم بالراء وهي تفيد التكرار ، وهذا كله يتناغى مع السياق.

---

١) خصائص الحروف ومعانيها ص ٧٠.

المبحث الثاني

مخرج الصوت وأثره في التناسب الصوتي

حين تحدث البلاغيون عن فصاحة الكلمة والكلام اشترطوا خلوهما من التنافر، واختلفوا في سبب التنافر فمن قائل: إنه قرب المخرج، وقائل: بل بعد المخرج، قال الرماني: "وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد، وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد؛ لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال."[١]

ورد بعضهم التنافر إلى طول الكلمة وكثرة حروفها، ودار هذا التنازع، ولم يسلم لقائل من هؤلاء قول، ولم يطرد له رأي، بل رد الأمر في عقباه إلى قبول الذوق، واستساغة السمع لها، وهذا هو الرأي، وإلا فإنك ترى كلمات تنبيك أصواتها – بقرب مخارجها أو بعد مخارجها أو طول حروفها– عن معناها أو قريب منه في سهولة ولين، وإن اكتنفتها شدة لفظ أو كلفة نطق فإن ذلك يكون من أظهر وجوه بيانها، وكم تدبر أهل الذوق كلمات في البيان العلي وكان باب تدبرهم هو صوت الكلمة، طولا وقصرا، وقرب مخرج أو بُعده، وقد ذكر العلامة أبو موسى –حفظه الله– "أن هناك كلمات ثقيلة على اللسان، ولكن ثقلها من أهم مظاهر فصاحتها من حيث إن هذا الثقل يصور معناها بحق،... وخذ قوله تعالى يحكي مقالة سيدنا نوح عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾، وتأمل كلمة أنلزمكموها، وما فيها من صعوبة في النطق تحكي صعوبة الإلزام بالآيات وهم لها كارهون"[٢] ومثله قوله:

---

١) النكت ص٩٦

٢) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني ص٦٤ ، المؤلف: محمد محمد أبو موسى الناشر: مكتبة وهبة الطبعة: السابعة

(فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّه)[١] وقوله: **(أَلَمْ أَعْهَد)**[٢]، وقوله: **(وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْه)**[٣] وغيرها من الكلمات، ولذا قال العلامة سعد الدين التفتازانيّ وهو يبين وجه الثقل في قول أبي تمام :

كَريمٌ مَتى أَمدَحهُ أَمدَحهُ وَالوَرى ∴ مَعي وَمَتى ما لُمتُهُ لُمتُهُ وَحدي

يقول: "ولا يجوز أن يراد أن الثقل في لفظة أمدحه دون تكرار، فإنّ مثل ذلك واقع في التنزيل نحو قوله تعالى: (فَسَبِّحْهُ) والقول باشتمال القرآن على كلام غير فصيح مما لا يجترئ عليه المؤمن."[٤]

ولنتأمل نماذج من أثر القرب والبعد في المخرج على انسجام الكلمات وائتلافها مع أخواتها في أدعية الاستفتاح

قوله ﷺ : **(اللَّهُمَّ باعِدْ بَينِى وبَينَ خَطايايَ كما باعَدتَ بَينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِى مِن خَطايايَ كما يُنَقَّى الثَّوبُ الأبيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغسِلنِى مِن خَطايايَ بالثَّلجِ والماءِ والبَرَدِ)**

الكلمات الرئيسة في هذا الاستفتاح هي أفعال الدعاء التي هي مطلوب العبد ومقصده، وهي ثلاثة: (باعد ، نقني ، اغسلني)

وقد بني الفعل (باعد) من حرف شفوي وهو الباء، وقبل أن يرتد الصوت من الشفتين إلى الحلق حيث (العين) مثلت ألف المد والإطالة لتبعث على التهيؤ لهذا الانتقال البعيد بين الصوتين المتباعدين حيث أول المخارج وآخرها، وحروف المد قادرة بطبيعتها الانطلاقية بلا حبسة على تقريب المتباعدين تقريبا منسجما لا كلفة فيه ولا مشقة، ليعود من مدة الألف إلى العين الحلقية ثم إلى الدال التي هي من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا لنرى بهذا

---

١) البقرة من الآية ١٣٧

٢) يس من الآية ٣٦

٣) سورة ق من الآية:٤٠

٤) المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم تأليف العلامة سعد الدين التفتازاني تح/الدكتور عبد الحميد هنداوي الناشر: دار الكتب العلمية بيروت لبنان– الطبعة الثالثة.

الانتقال بين مخارج هذه الكلمة من تباعد حيث أول المخارج وآخرها هذه المباعدة المقصودة للعبد؛ فصوّر بالبعد الصوتي البعد المعنوي بينه وبين ذنوبه، فتأمل بُعدَ ما بين الشفة والحلق فإنه أقصى ما يكون في مخارج الصوت، والمشرق والمغرب أقصى ما يكون في البعد الحسي، ومطلوب العبد مباعدة كتلك التي تراها بين المشرق والمغرب، فتجاوبت الأصوات، واستجابت المخارج لتضارع هذا البعد وتحكيه.

أما الفعل (نقني) وهو المطلوب الثاني للعبد فإنه بني على هيئة تخالف ما سبق فإن المقصود هنا الإزالة البالغة والخلوص التام والنظافة الكاملة، وقد بُني الفعل في صورته على صوتين متقابلين في المخرج حيث القاف ومخرجها أقصى اللسان، والنون ومخرجها طرف اللسان، وقد ترددت القاف بتضعيفها، والنون بتكرارها، والأولى من الأصول، والثانية زائدة للوقاية، فهاهنا نونان وقافان، فثَم تقابل في المخرج، وترداد في الصوت، ترى ما الذي يحكيه هذا الترداد والتقابل في هذين الصوتين؟ إنه أشبه بتكرار معالجة الشيء وإعادة تقليبه لإزالة شوائبه، فترى هذه الكلمة بأصواتها تريك حركة اللسان من طرفه إلى أقصاه، ومن أقصاه إلى طرفه في حركة دائرية تشبه من يقلب الثوب وهو يغسله يتتبع وسخه ودنسه، فهو لا يزال في تلك الحركة الدائبة ، ثم ترى هذا الانتقال في الصوت من النون إلى القاف ثم إلى النون مرة أخرى وهو انتقال من صوت متوسط في صفاته وهو (النون) فهو بين الرخاوة والشدة والاستفال والانفتاح والغنة إلى حرف شديد في صفاته وهو (القاف) حيث الجهر والشدة والاستعلاء والقلقلة، يزيد هذه الصفات شدة ذلك التضعيف ليبلغ الصوت مداه، فيصور بتلك الشدة والضغط على المخرج أمرين: الأول: شدة التصاق الدنس بالثوب والخطايا بالعبد وهذا صوَّره صوتيا مرحلة التصاق صوت القاف بسقف الحنك، حيث انحبس النفَس، وانحبس الصوت أشد ما يكون، وهذا الانحباس تبعه تباعد ومفارقة بين أقصى اللسان وسقف الحنك، وهذا يصور تلك الشدة والمبالغة في التنقية والتنظيف من الذنوب والخطايا ليعود بعد تلك الشدة

الشديدة إلى الخفة والذلاقة في النون الذي بدأ بها ليسلس مخرج اللفظ، ويسهل الفراغ منه، ويتواءم مع حالة الثوب وقد فرغ من تنقيته وتنظيفه، وحالة العبد وقد خرجت منه ذنوبه كما خرج من الثوب دنسه.

ولك أن تتأمل حالة التدرج في الفعلين: (باعد، ونقني) فالأول بني على الحلق والشفتين فقابل بين أول المخارج وآخرها متجاوزا اللسان الذي لم يعمل شيئا، وفي الفعل الثاني (نقني) اقتصر المخرجان على اللسان فقوبل بين طرفيه .

أما الفعل الثالث وهو (اغسلني) فقد انتقل الصوت بدءا من الحلق في (الغين) إلى طرف اللسان وأطراف الثنايا السفلى في (السين) إلى أدنى حافتي اللسان في (اللام) إلى طرف اللسان مع ما يليه من أصول الثنايا العليا في (النون) فمن الحلق، إلى اللسان، وهذا تباعد في المخرج يؤازر الانتقال في الفعلين السابقين ويعضد دلالتهما، ثم يتقلب الصوت في اللسان طرفه وحافتيه ثم طرفه، حيث (السين واللام والنون) وهذا تقارب في المخرج يمثل ما يدل عليه الفعل من" تَطْهِيرِ الشَّيْءِ وَتَنْقِيَتِه"[1] فإن من تعاهد الشيء بقرب لم يدع فيه شائبة ، والذي حسن هذا التقارب المخرجي اقتران حرفين من حروف الذلاقة التي يسهل مخرجها ويسلس نطقها وهما اللام والنون.

وهكذا رأينا كيف بنيت هذه الأفعال من تلك الأصوات التي غلب عليها التباعد المخرجي الذي كشف ببعده عن رغبة العبد في طرح ذنوبه بعيدا عنه أقصى ما يكون البعد، وجاء هذا في الأفعال الثلاثة، كما رأينا دلالة القرب المخرجي في الفعل الثالث (اغسلني) كيف دل على تقارب العهد في الغسل والتنقية حتى لا يبقى للذنوب أثر، ولا للخطايا بقية، لذا حسن أن يكون ختاما. والله أعلم .

---

١) مقاييس اللغة المؤلف: أحمد بن فارس ٢٤/٤ ،المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

وتأمل تقارب المخرج مع بقاء صفاء اللفظ وفخامة الصوت في كلمة (الحق) التي تكررت في استفتاح الليل بصورة لافتة ملأت السياق، وجلجلت حتى أضحت عمود الاستفتاح لفظا وصوتا كما هي عموده دلالة ومعنى وذلك قوله ﷺ:

(....وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ...)

فها هي الحاء من الحلق، والقاف تجاورها التصاقا من أقصى اللسان، فالتقارب ظاهر، وقد أعان قرب المخرج ما وضع له اللفظ من دلالة؛ فالله هو الحق، ووعده الحق، ولقاؤه حق، وكل ما أضيف إليه –سبحانه– فهو حق، والحق – في اللغة– مصدر حق الشيء يحق حقاً، إذا كان ثابتاً موجوداً غير معدوم ولا منفي[1]، والحاء والقاف: أصل واحد، وهو يدل على إحكام الشيء وصحته، فالحق نقيض الباطل.. ويقال: حقَّ الشيء وجب.. وثوب محقّق: إذا كان محكم النسج.. ".[2]

وهكذا ترى أصله اللغوي يدور على الصحة والثبات والإحكام، وفي قرب المخرج – الذي قالوا عنه: إن فيه عسرا في النطق، وكلفة في الصوت؛ لأنه يشبه مشية المقيد – في هذا القرب ما يدل على ترسيخ أمره وتثبيت شأنه؛ فإن الوصلة بين الأمرين إذا كانت قريبة، ولم يكن بينهما مسافات بينية كبيرة اشتد الوثاق، وقويت اللحمة، وهذا يتلاءم مع ثبات الحق وقربه وقوته، كما أشعرت بذلك (القاف) بشدتها، وتضعيفها، ثم بتكرارها مع كل مبتدأ حتى ملأ الحق الاستفتاح، وشنف الآذان؛ لأنه مراد به أن يملأ القلوب، وينتشر نوره، ولا يغفل عنه سائر إلى الله؛ حتى يتعلق القلب بالرب؛ لأنه حق، ويصدق وعده؛ لأنه حق، ويؤمن بلقائه؛ لأنه حق، ويرجو الجنة؛ لأنها حق، ويرهب النار؛ لأنها

(١) الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ١٦٥.

(٢) مقاييس اللغة ١٦/٢.

حق، ويؤمن بالساعة؛ لأنها حق، ويؤمن بالنبيين؛ لأنهم حق، ويؤمن بخاتمهم محمد ﷺ؛ لأنه حق، فمتى تحقق القلب بذلك، وعملت الجوارح به كان العبد على سبيل النجاة.

وهذا العسر الذي تحدث عنه البلاغيون قد انتفت وحشته بتضعيف القاف وحركتها، ثم ترى هذا اللفظ قد انطوى على سر دقيق في الانتقال من (الحاء) بهمسها ورقتها إلى (القاف) بشدتها وجسارتها، فهذا التقابل بين هاتين الصفتين يحكي ما اشتمل عليه الحق من حنو ورقة ورحمة لا نجاة للعباد بدونها، بل ولا غنى لهم عنها، كما يحكي في الوقت نفسه ما في بلوغ الحق والثبات عليه من تكاليف شاقّة وفروض بالغة؛ فبني اللفظ من حرفين يحكيان المعنيين فصاقب اللفظ المعنى على أحسن حال وأعذب مقال.

كما ترى تباعدا في المخرج بين الغين والفاء في قوله (اغفر) المكرر في الاستفتاح وغيره حيث ترى الصوت ينتقل من الحلق إلى الشفتين طفرة، هذا بالنظر إلى مخرج الصوت، ومن حيث الصفة نرى طفرة تشبه هذه؛ حيث الانتقال من حرف جهري شديد وهو (الغين) إلى أضعف الحروف وهو (الفاء) فهذا التباعد في المخرج والصفة يحكي صورة جليلة هي تلك التي يكون عليها العبد حال استشعاره الذنب وخطره، فهو يريد النجاة والمباعدة من ذنوبه وخطاياه، كما نص على ذلك في استفتاح آخر صريح: (باعد بيني وبين خطاياي) فكان هذا البعد المخرجي مصورا تلك المباعدة التي يرجوها العبد، وبهذا تتلاقى معاني الاستفتاح، كما تتآزر أصوات حروفه في تصوير تلك المعاني.

وفي الفعل (اغفر) المذكور هنا والمكرر في أدعية الاستفتاح بُعدٌ صوتي آخر، حيث بني على أصوات استوعبت أصول المخارج الثلاثة الحلق واللسان والشفتين. فإن (الغين) من الحلق (والفاء) من الشفة (والراء) من اللسان، والعبد يطلب مغفرة الذنوب جميعها، ولا يتحقق له السعادة والفوز إلا بها، فكما تراه يصرح بالعموم في بعض المواضع بقوله: (فاغفر لي ذنبي جميعا) أو يجليه

بالموصول العام مجملا ومفصلا كما في قوله: (فاغفر لي ما قدمت)، أو يدل عليه بحذف المفعول لإفادة العموم كما في قوله: (اللهم اغفر لي) فكما تنصب هذه القرائن لإفادة عموم المغفرة فإن أس ذلك وأصله ما بني عليه اللفظ بناء ثابتا لا يتغير، وهو استيعابه أصول المخارج فتواشج الصوت مع المعنى أحسن ما يكون ولا يضير ذلك ألا نشعر به أو نغفل عن تدبره.

وهذا يدل على أن الكلمة قد تأتي مستوعبة أصول المخارج، فيكون لذلك وجه ما يفيد العموم، وهذا بمعونة السياق والقرائن، كما أشار إلى ذلك ابن القيم والزركشي – رحمهما الله تعالى– وهما يتأملان السور التي افتتحت ب(الم).

يقول: "تأمل سر: (الم) كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة، فالألف إذا بدئ بها أولا كانت همزة، وهي أول المخارج من أقصى الصدر، و(اللام) من وسط المخارج وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، و(الميم) آخر الحروف، ومخرجها من الفم، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف، أعني الحلق واللسان والشفتين، وترتيب في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية. فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجا؛ فيصير منها تسعة وعشرون حرفا، عليها دار كلام الأمم الأولين والآخرين، مع تضمنها سرا عجيبا، وهو أن للألف البداية، واللام التوسط، والميم النهاية، فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما، وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسطه، فمشتملة على تخليق العالم وغايته وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر، فتأمل ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة وسورة الروم."[1]

---

١) بدائع الفوائد ١٧٣/٣، والبرهان في علوم القرآن ١٦٨/١ المؤلف: الزركشي ، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

من ذلك ما نراه في الاستفتاح من اطراد الدعاء بصيغة (اللهم) فاللام من اللسان، و(الهاء) من الحلق و(الميم) من الشفتين، وقد قال أهل العلم: إن اللهم مجمع الدعاء، فناسب ذلك بناؤها على مجمع المخارج وأصولها، ولما فيها من معنى الجمعية التي سبقت الإشارة إليها .

ومثله ما في قوله ﷺ: "وجهت وجهي" وقد بني من أصوات (الواو والجيم والهاء)، و(الواو) من الشفتين و(الجيم) من وسط اللسان و(الهاء) من أقصى الحلق، فاستوعبت هذه الكلمة المخارج الثلاثة؛ لتدل بهذا الاستيعاب على التوجه بالكلية إلى الرب العظيم الذي فطر السماوات والأرض، وقد تدرج الصوت فمن الشفتين إلى وسط اللسان إلى أقصى الحلق، يشير بذلك إلى اتساق التوجه، وأنه لا عوج فيه ولا أمت، بل هي الاستقامة في الجهة، والقصد في الطلب، ولذا قيده بالحال فقال: حنيفا، وقوله: (حنيفا) أي " مائلاً عن كل دينٍ باطلٍ إلى الإسلام ثابتاً عليه"[1] وقد بني هذا الحال –أيضا– على ثلاثة أصوات استوعبت المخارج الثلاثة؛ حيث (الحاء والنون والفاء) فالتوجه إلى الله بالكلية والحنف (الميل)عن غيره –سبحانه– إليه بالكلية أيضا، وهما متلازمان، فلا يتحقق التوجه إليه بالكلية إلا بالميل عن غيره بالكلية، وقد كشف عن هذا بدلالة اللفظ، وبمجيء هاتين الكلمتين مستوعبتين المخارج الثلاثة التي هي أصول المخارج كلها. إلى غير ذلك من الكلمات التي بنيت على هذه الخصيصة، وكان السياق يقتضي عموما فيكون في سوقها على هذا الوجه ما يعضد دلالة العموم والله أعلم.

---

١) بذل المجهود في حل سنن أبي داود ١٢٠/٤ المؤلف: الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، اعتني به وعلق عليه: الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي الناشر: مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات الإسلامية، الهند الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م.

المبحث الثالث

أصوات المد وأثرها في التناسب الصوتي

أصوات المد: هي الألف والواو والياء الساكنة المسبوقة بحركة من جنسها، قال صاحب الكتاب: " وهي حروف لينٍ ومدٍّ، ومخارجها متسعة لهواء الصوت؛ وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها؛ ولا أمد للصوت؛ فإذا وقفت عندها لم تضمها بشفةٍ ولا لسانٍ ولا حلقٍ كضم غيرها"[١]

وقال ابن يعيش: "وأصلُ حروف الزيادة حروف المدّ واللين التي هي الواو والياء والألف، وذلك؛ لأنّها أخفُّ الحروف؛ إذ كانت أوسعَها مَخْرجًا، وأقلّها كُلْفَةً ... وأيضًا فإنّها مأنوسٌ بزيادتها، إذ كلُّ كلمة لا تخلو منها، أو من بعضها. ألا ترى أنّ كلّ كلمة إن خلت من أحد هذه الحروف، فلن تخلو من حركة: إمّا فتحةٍ، وإمّا ضمّةٍ، وإمّا كسرةٍ؟ والحركاتُ أبعاضُ هذه الحروف، وهي زوائدُ لا محالةَ، فلمّا احتيج إلى حروف يزيدونها في كلمهم لأغراض لهم، كانت هذه الحروف أَوْلى، إذ لو زادوا غيرَها، لم تُؤمَن نَفْرَةُ الطَّبع والاستيحاشُ من زيادته، إذ لم تكن زيادته مألوفةٌ.[٢]

وهذه الأصوات تشترك جميعها في المخرج والصفة فهي من الجوف، ولها من صفات الشدة: الجهر، ومن صفات الضعف: الرخاوة والاستفال والانفتاح واللين؛ فهي في عداد أضعف الحروف، الأمر الذي أعان على ترقيق كلماتها، ورخاوة صوتها مع الجهر بهذه الرقة، وسبب ذلك صوتيا: أنها تخلو من ظاهرة الاحتكاك التي توجد في الصوامت، ولقد عد خلو هذه الأصوات من الاحتكاك عنصرا جوهريا فيها وأساسا لتمييزها من الصوامت[٣] وقد سمح لها عدم

---

١) الكتاب ١٧٦/٤

٢) شرح المفصل للزمخشري المؤلف: ابن يعيش ٣١٥/٥ قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب – الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م

٣) مناهج البحث في اللغة تمام حسان ١١٣–١١٧ الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية.

الاحتكاك بأن تحمل طاقة أعلى بكثير مما تحمل الصوامت[١]، فساعدتها قوة الطاقة هذه على أن تكون أصواتا ذات قدرة عالية في الإسماع"[٢]

وهكذا ترى اللغويين يؤكدون على أهم خصائص حروف المد وهي كونها أصول حروف الزيادة، وأنها أخف الحروف، وأوسعها مخرجا، وأقلها كلفة، وأكثرها إيناسا ومواءمة للطبع، كما أنها تمتاز بقوة الوضوح السمعي والتصويت، وإعطاء الصوت اللاحق له قوة، وإيصاله للحرف الذي يليه في قوة. ومما يعضد ذلك ما تراه من حرص الفاصلة القرآنية في جل مواقعها على مجيء حرف المد سابقا لحرف الفاصلة وتأمل كيف شئت في فواصل الكتاب الكريم ترى هذا واضحا ففاصلة فاتحة الكتاب سبقت بمد الياء، وفاصلة (المؤمنون) سبقت بمد الواو، وفاصلة الرحمن سبقت بمد الألف وهكذا..، ولا شك أن لهذا أثره الصوتي على معاني الكلمات ذات الصوائت.

وقد كانت قراءة رسول الله ﷺ مدًّا فعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: سُئِلَ أَنَسٌ – رضي الله عنه –: كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ ؟ فَقَالَ: " كَانَتْ مَدًّا، وفي رواية: (كَانَ يَمُدُّ صَوْتَهُ مَدًّا) ثُمَّ قَرَأَ: {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ، يَمُدُّ بِـ {بِسْمِ اللهِ}، وَيَمُدُّ بِـ {الرَّحْمَنِ}، وَيَمُدُّ بِـ {الرَّحِيمِ} "[٣]

ولم يكن هذا في قراءة القرآن فحسب بل في بعض الأذكار –أيضا– كما ثبت أنه ﷺ كان إذا سلم من الوتر قَالَ: (سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ) ثلاثًا يَمُدُّ صَوْتَهُ فِي الثَّالِثَةِ ثُمَّ يَرْفَعُ)[٤]

---

١) الأصوات اللغوية د إبراهيم أنيس ص ٢٦ ، ٢٧ القاهرة :مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٧م.

٢) أصوات اللغة د. عبد الغفار هلال ١٠١ القاهرة – مطبعة الجبلاوي ١٩٨٨م ، ودراسة الصوت اللغوي أحمد مختار عمر١٢–١٣: ط ١ القاهرة عالم الكتب ١٩٧٦م

٣) **صحيح البخاري ١٩٥/٦**

٤) عمل اليوم والليلة للنسائي ص٤٢٢ المحقق: د. فاروق حمادة الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة: الثانية، ١٤٠٦.

فالمد إذن كان من خصائص بلاغة الأداء النبوي مما يمثل عنصرا مهما في إبلاغ المعنى وتقريره .

وقد أشار الرافعي– رحمه الله– وهو يتأمل غرابة كلمة (ضيزى) في قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى**﴾ إلى ما احتوته من مدٍّ مصوِّر بالغ في النفس مبلغ التأثير فقال: "فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكارَ في الأولى والتهكم في الأخرى؛ وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدَّين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية. والعربُ يعرفون هذا الضربَ من الكلام، وله نظائرُ في لغتهم، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سيقت له بلفظها وهيئة منطقها، فكأن في تأليف حروف معنى حسياً، وفي تألف أصواتها معنى مثله في النفس"[1]

هذا وقد كثرت حروف المد في الاستفتاح وهي ذات صوت جهري يعمل على تمام الإبلاغ وحسن الإيقاع، وقد كان النصيب الأوفى للألف حيث وردت في مجموع الاستفتاحات تسعين ومائتي مرة أي ما يزيد عن ثمانين بالمائة من مجموع أصوات المد، بينما جاء المد بالياء خمسين مرة أي ما يمثل ١٤% ، في حين أن الواو بلغت خمس عشرة مرة بما يمثل ٤% .

وهذا ينبئ – على وجه العموم – بما بنيت عليه أدعية الاستفتاح من الخفة والسهولة وطلاقة الصوت وإيضاحه ثناء ودعاء، وهذا يلائم تكرارها مع كل صلاة فريضة كانت أو نافلة، كما يلائم ورودها في استفتاح الصلاة ومبدئها،

---

١) إعجاز القران والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي ص ١٥٨ – الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثامنة – ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م

الأمر الذي يهيئ النفس للإقبال على صلاته في نشاط وخفة، ثم إن هناك وسوسة من الشيطان في داخل الصلاة وهي لا شك تشغل العبد، فكانت هذه الأدعية بخفة أصواتها على الجملة معينة للعبد على نطقها في يسر ولين دون كلفة أو مشقة، ولذا قل تكرار المد بالياء فهي أثقل من الألف، وندر المد بالواو؛ لأنه أثقل أخويه.

وإذا كان الباحثون يرون "أن الحزن والشجن والأسى هي الدلالات الأكثر التي يستوحونها من الأصوات الصائتة ، وأن مجال الحزن هو المجال الأوسع الذي تختص به تلك الأصوات"[١] إذا كان الأمر كذلك فإن مقام الذكر والدعاء – لا سيما في الصلاة محل الخشوع ومقام المناجاة – لهو أوثق بتلك الحالة المشحونة بالشوق، المفعمة بالرغبة والرهبة والاستغاثة والخوف، فالعبد الضارع المناجي ربه المنطرح بين يديه يمد صوته، ويطيل جؤاره، لعله يحظى بالقبول، ويفوز بالمغفرة.

وتأمل قوله: (خطاياي) التي تكررت ثلاث مرات في استفتاح واحد كيف قامت فيها الألف التي هي "أشد امتدادا، وأوسع مخرجا"[٢] مكررة لتبعد تلك الخطايا، وتتحاشاها، وتلقيها في سرعة، مصورة شدة ثقلها، وكلفة حملها، وكم هي حاجة العبد المثقل بها إلى طرحها والتخلص منها! فمثلت الألف لتحكي تلك الرغبة، وتصور تلك اللهفة. ؛ لأن "المد فيها –أين وقعت– شيء يرجع إليها في ذوقها وحسن النطق بها"[٣].

ولم يأت النظم النبوي بالفعل (أبعد) عديم الألف؛ لأن قدرا كبيرا من المعنى تفيده تلك (الألف) تأسيسا وتأكيدا، فتضيف ذلك المعنى الدقيق المراد، ألا وهو

---

١) البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ، مصطفى السعدني – منشأة المعارف – الإسكندرية ص ٣٧

٢) سر صناعة الإعراب أبو الفتح عثمان بن جني ٧٦/١ الناشر: دار الكتب العلمية بيروت–لبنان الطبعة: الأولي ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م

٣) الخصائص ٢٣٥/١

قصد الداعي إلى طول مساحة المباعدة بينه وبين خطاياه؛ فامتدت الألف بعد فتحة الباء فأوسعت تلك المساحة، بخلاف (أبعد) الذي يفيد البعد لكنه لا يشبعه، ولا يكشف عن أمده، وقد لاءمت تلك الألف في الفعل (باعد) المرجو تحقيقه الألف التي في الفعل (باعدت) المتحقق وقوعه، فعلى قدر تلك المساحة البعيدة الممتدة حسيا بين المشرق والمغرب يطلب العبد المباعدة بينه وبين خطاياه.

وتلتقي تلك الألف في الفعلين (باعد وباعدت) بألفي (خطاياي) وفتحاتها المتتالية التي تحكي كثرة الخطايا وتنوعها وظهورها وامتدادها في آفاق بعيدة ومسارب عديدة ذهبت بالعبد كل مذهب، حتى إذا ذكرها فتح فاه لاهجا بها مشفقا منها فتحًا يخرج كل زفيره، ومعه حشاشة نفسه النادمة ، وثمالة روحه الباكية، ودموع قلبه الذي غطته الخطايا، ورانت عليه الذنوب حتى إذا وقف بين يدي ربه في الصلاة، واستحضر جلاله وعظمته، وتذكر خطاياه فتح فاه فتحا متتابعا لا انضمام فيه ست فتحات (خَ طَ ا يَ ا يَ) ثلاث فتحات مفخمة جهيرة أشد ما يكون التفخيم؛ حيث الخاء والطاء مفتوحتان بعدهما صائت طويل وهو (الألف)، وثلاث فتحات صائتة رقيقة حيث الياءان بينهما (ألف) فهل آذن اجتماع التفخيم والترقيق بهذه القسمة إلى تنوع خطايا العبد ؟ المهم أن هذا الصوت الممتد دون انقطاع، المنفتح دون استفال، المندفع بلا تضييق في مخرج الصوت، المكرر على مسافات متقاربة ثلاث مرات، بإظهار موضع الإضمار إنما جاء على هذه الهيئة حفاظا على هذا التدفق وإبقاء على هذا الاندفاع (خطاياي– خطاياي – خطاياي) لعله يفتح قفل قلبه فتخرج تلك الخطايا، وقد أذابتها المغفرة، وأذهبها العفو؛ فيخرج من صلاته مغفورا له.

كذلك (الألف) في قوله: ﷺ **(سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمدِكَ، وتَبارَكَ اسمُكَ، وتَعالَى جَدُّكَ، ولا إلَهَ غَيرُكَ)** فتأمل تلك الألف في (سبحانك، اللهم، تبارك، تعالى) كيف أظهرت بمد صوتها امتلاء كلماتها، فألف (سبحان) أظهرت تمام التنزيه وكمال المباعدة من النقص، كما أن ألف (تبارك وتعالى) قد أظهرت

هي الأخرى الدلالة على كثرة البركة وجلال العظمة، فقوله: (تبارك) "مِنَ الْبَرَكَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ الدَّائِمَةِ الثَّابِتَة "[1] وَقوله: (تعَالَى) "مِنْ الْعُلُوِّ أَيْ عَلَتْ عَظَمَتُك عَلَى عَظَمَةِ كُلِّ أَحَدٍ غَيْرِك. قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: مَعْنَى تَعَالَى جَدُّك عَلَا جَلَالُك وَعَظَمَتُك. والْجَدُّ: الْعَظَمَة[2]

فكلا الوصفين على وزن واحد (تفاعل) وهذه الصيغة تفيد الكثرة والاتساع، فلاءم أن ترد في وصف الله –عز وجل– بالبركة في أسمائه، والعلو في عظمته، وتأتَّى ذلك صوتيا من تلك الفتحات المتوالية، والألف التي بينها في الكلمتين، فانفتح مخرج الصوت بهما، واتسع غاية الاتساع ليتلاقى مع اتساع المعنى وكثرته، يؤازر ذلك نصاعة العين، وشدة الكاف وهي تحتك في سقف الحنك . وهذه الهيئة تتوافق مع دلالتهما على تمام البركة وكمال العلو.

كذلك ما تراه من صوت الألف وهي تمتد في كلمة التوحيد المكررة في الاستفتاح (لا إله إلا الله) (لا إله إلا أنت) وقد تكررت في مجموع الاستفتاح خمس مرات، وهذه المدود المتلاحقة في كل كلماتها أو جلها تجلي ما تنطوي عليها كلمة الإخلاص من امتداد يظهر قوة التوحيد وجلاله.

فتأمل أثر المد وفعاليته في إظهار مضمون كلمة التوحيد وتمكين ناطقها من رفع الصوت وإطالته، مما يعطي الناطق بها سهولة في النطق، لا سيما وقد تكرر فيها حرف اللام الذي سبق كل مد فيها، واللام " أكثر الحروف دورانًا في كلام العرب؛ للطفها وضعفها ورقّتها حيث كانت، ولا تكون هذه الرقّة التي فيها إلَّا مشوبةً ببعض القوَّة والشدَّة، فهي إذن أعدل الحروف، وأحسنها استواءً، فلا تعتاص على باغيها. ولذلك أيضًا تجدها لا تدخلها

---

١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٩٢/٦ المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

٢) نيل الأوطار المؤلف: محمد بن علي الشوكاني ٢٢٨/٢ ، تحقيق: عصام الدين الصبابطي الناشر: دار الحديث، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

العيوبُ التي تدخل سائر الحروف كالراء التي تليها"[1] فيأخذ المد هذه اللام فيصوت بها، ويتحرك اللسان وهو يتصاعد مع كل مد، ويعلو مع كل إطالة .

وهكذا نرى ألف المد تكررت وكثرت في أدعية الاستفتاح مما يدل في كل حال على يسر ولين يتناغمان مع حال الذاكر، وهو يمد صوته بلا كلفة، ويطيله بلا مشقة، بل هو الخشوع والسكون؛ حيث لا يحرك الذاكر مع مد الألف أيا من أعضاء نطقه، فالألف تنطلق لا يوقف صوتها المنبعث من الجوف إلا سكتة الذاكر، أو وصله اللاحق بالسابق. وهي بحق يألفها المنطق ويشوقها اللسان، وقد أصاب صاحب اللسان حين علل لتسميتها بالألف فقال " لأنها تألف الحروف كلها ، وهي أكثر الحروف دخولاً في المنطق"[2]

ولو تأملنا بعض شواهد للمد بالياء وهي في الترتيب دون الألف كثرة وخفة، فهي وسط بين الألف والواو ، وقد وردت في مقام تأكيد التكبير والتحميد والتسبيح في قولهﷺ في الاستفتاح : **(اللَّهُ أَكبَرُ كَبِيرًا، والحَمدُ للَّهِ كَثِيرًا، وسُبحانَ اللَّهِ بُكرَةً وأَصيلًا)** والتأكيد هنا يؤدي وظيفة تكثيف المعنى الذي يؤازر خصيصة الإيجاز، والتكثيف يعينه صوتيا مزيد من المد، فنرى هنا في الكلمات الثلاثة اقتران مدتي الياء والألف، وفي هذا إبلاغ في الصوت يتلاقى بإشباعه مع التأكيد الذي نُصب له السياق، فجاء التكبير والتحميد والتسبيح ملائما للصلاة أدنى ما يكون، وجاء إشباع صوته بتقارن أصوات المد، حيث انتقل الصوت من مد بالياء إلى مد بالألف، وهذا يحكي حال العبد وهو يحاول الارتقاء من انحدار إلى صعود وعلو مؤكدا هذه الملاءمة، ثم اتسق الصوت بوحدة الوزن(كبيرا – كثيرا – أصيلا)، مع اتحاد الفاصلة، والجناس الذي بين (كبيرا وكثيرا) ولا شك أن هذه الصوتية لمما تتناسب مع خشوع الذاكرين وخضوع المخبتين.

---

١) جمهرة مقالات محمود شاكر ٢/٧٣١ ، ٧٣٢

٢) لسان العرب المؤلف: جمال الدين ابن منظور ١٥/٤٢٧ الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ

وتأمل المد بالياء في قوله في استفتاح آخر في صلاة الليل :(**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي، وَعَافِنِي)** تر كيف أعانت المدود بالياء في أربع كلمات متوالية على إشباع الصوت وترنيم الذكر في تتابع شجي يحكي خضوع الداعي وانكساره بين يدي ربه، وخوفه من خطاياه، وحياءه من مولاه، فها هو يناجيه متذللا **(اغْفِرْ لِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي، وَعَافِنِي)**) **(نَقِّنِي مِنَ خَطَايَايَ ... اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ)** كيف ترى حالك وأنت تنطق بها، أو تسمع من ينطق بها ألا ترى في تلك الياء ومدها – حين يتراجع اللسان وتسفل عند النطق بها الشفتان – ما تحرك في النفس من الخوف والوجل، وما اعترى قلبه من الحياء والخجل، فالمد بالياء كما قيل "يدل على الانفعال المؤثر في البواطن"[1] قلت: إنما يعين ذلك ويسعفه دلائل السياق وهي هنا واضحة لائحة.

هذا وقد ندر مجيء المد بالواو في أدعية الاستفتاح حيث لم يرد إلا في خمس كلمات في مجموع الاستفتاحات، وذلك في قوله: **(أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** وقوله: **(وَالنَّبِيُّونَ حَق)** وقوله: **(أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)** وقوله: **(ذُو المَلَكُوتِ والجَبَرُوتِ)**

وهذا يلتقي ابتداء مع شدة النطق بالواو، والدعاء على وجه العموم مبناه على سهولة النطق ويسر الأداء، بحيث لا يجد اللاهج به كلفة ولا مشقة، وبهذا يواطئ اللسان القلب، فتخرج الأدعية وقد تسربلت سربال الخفة، وتوشت بزي اللين والسهولة، ولذا قلّ ورود المد بالواو الذي يتطلب من أعضاء النطق أكثر ما يتطلبه أخواه "لأنك تضم شفتيك للواو فيتضيق المخرج"[2] ولذا نراه في

---

١) تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي المؤلف الدكتور. أسعد أحمد علي– ص ٦٤ – دار السؤال للطباعة والنشر بدمشق– ط/الثالثة ١٤٠٦هـ– ١٩٨٥م

٢) شرح شافية ابن الحاجب المؤلف: محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي، ٢٦١/٣ – حققه الأساتذة: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيى الدين عبد الحميد– الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان– عام النشر: ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م

مواضع فيها الدلالة على الضم والجمع في نحو (والنبيون حق) ونحو (يختلفون) والواو صوت تجتمع فيه الشفتان فناسب استعماله فيها . كما تراه يرد في الكلمات الدالة على المبالغة في الصفة كما في قوله: (ذو الملكوت والجبروت) "فالملكوت مبالغة في الملك؛ كالرحموت والرغبوت والرهبوت. (والجبروت) مبالغة في الجبر بمعنى القهر والغلبة."[1] فلاءم المد بالواو هذه المبالغة، فدل على الزيادة في الصفة بصيغته، وبصوت مده الذي هو عمود تلك الصيغة، وكذا الحال في صيغ المبالغة تجد أكثرها بني على صائت من المد، مما يؤكد أهميته في إشباع المعنى والمبالغة فيه وذلك سوقًا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب.

١) لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح ٣١٦/٣ المؤلف: عبد الحق بن سيف الدين الدِّهلوي تحقيق وتعليق: الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا الطبعة: الأولى، ١٤٣٥ هـ – ٢٠١٤ م.

الفصل الثاني

انسجام التأليف الصوتي

المبحث الأول

جمال النسق وانسجام التأليف الصوتي

لا يظهر تناسب الأصوات في أبهى صورته إلا في حال التأليف؛ إما في لفظة مفردة أو في ألفاظ مؤلفة؛ لأن التأليف هو المسرح الذي تلتقي فيه الأصوات على اختلاف مخارجها وصفاتها، فتتداخل أجراسها وتتجاذب نغماتها، وعلى قدر تناسبها في الامتزاج تكون حلاوة الإيقاع ورشاقة الصياغة(١)

وهذا الانسجام يتأتى من تناغم الجمل في المباني، وانسجامها طولا وقصرا، ومن لوازم الربط المتفاعلة، ومن الصور البلاغية ذات الوقع الصوتي الملموس، وهذه الروافد تعمل متضامّة متآزرة في إحداث الانسجام التام والتآلف البديع.

ولنأخذ نموذجا يجلّي هذا التناسب الصوتي في تراكيبه ونظمه وذلك في استفتاح صلاة الليل:

فعن ابن عباس قال كان النَّبِيُّ – ﷺ – إذا قامَ مِنَ اللَّيلِ يَتَهَجَّدُ قال: "اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ أنتَ نورُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ، ولَكَ الحَمدُ أنتَ قَيِّمُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ، ولَكَ الحَمدُ أنتَ مَلِكُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ، ولَكَ الحَمدُ أنتَ الحقُّ، ووَعدُكَ الحقُّ، وقَولُكَ حَقٌّ، ولِقاؤُكَ حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنّارُ حَقٌّ، والسّاعَةُ حَقٌّ، والنَّبيّونَ حَقٌّ، ومُحَمَّدٌ – ﷺ – حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أسلَمتُ، وبِكَ آمَنتُ، وعَلَيكَ تَوَكَّلتُ، وإلَيكَ أنَبتُ، وبِكَ خاصَمتُ، وإلَيكَ حاكَمتُ، أنتَ رَبُّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ فاغفِرْ لِي ما قَدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما

---

١) ينظر التناسب البياني في القرآن د أحمد أبو زيد ص ٢٩٢ ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ١٩٩٢م

أسرَرتُ وما أعلَنتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أنتَ المُقَدِّمُ وأنتَ المُؤَخِّرُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ إلا أنتَ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا بِكَ".

فتأمل هذا التنسيق الصوتي الذي بني عليه هذا الاستفتاح في نظمه ، فتأمل –أولا– موقع (اللهم) من هذا الاستفتاح، كيف كان فاتحة كل حلقة منضدة منسوقة بتوازن بالغ، وتواز عجيب فقال: **(اللَّهُمَّ)** ثم ساق ثلاث جمل متساوية فقال:

لَكَ الحَمدُ أنتَ نورُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ،
ولَكَ الحَمدُ أنتَ قَيِّمُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ،
ولَكَ الحَمدُ أنتَ مَلِكُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ،

ترى مقدار هذه الجمل متساويا، بل وكلماتها مكررة لم يختلف فيها إلا لفظ واحد، هو اسم الله الأحسن، فأقبل على ربه بهذا الثناء فناجاه بأنه قيم السماوات والأرض ومن فيهن، وأنه نور السماوات والأرض ومن فيهن، وأنه ملك السماوات والأرض ومن فيهن. بهذا التنسيق البديع، وهذا التساوي الدقيق، وهذا الجلال الذي يملأ النفس مهابة، والقلب خشوعا، والجوارح سكونا. وهذا التساوي في المقدار والتنسيق في التركيب مؤذن بتآلف جد وثيق في المعنى، لأن اللفظ المختلف هو في الحقيقة مؤتلف إذ هو من أسماء الله الحسنى فهو انسجام بالغ في كل شيء، وهذا التكرار والتساوي في المقدار لم يدخل على النفس إلا القرب والترقي، وقد أُخذت النفس وجُذب القلب لخطاب الرب هذا الخطاب بالحمد والثناء .

ثم أنهى هذا المقطع الظاهر التآلف والانسجام وقد أخذ فاتحة هذه الجمل الثلاث (لك الحمد) لينضد قطعة أخرى عذبة شجية، يتحول فيها التنسيق الصوتي المرافق للمعنى من جمل طويلة إلى جمل قصار متساوية المقدار، متحدة الختام، حيث يقول:

ولَكَ الحَمدُ
أنتَ الحقُّ،

ووَعدُكَ الحقٌّ،
وقَولُكَ حَقٌّ،
ولِقاؤُكَ حَقٌّ،
والجَنَّةُ حَقٌّ،
والنّارُ حَقٌّ،
والسّاعَةُ حَقٌّ،
والنَّبيّونَ حَقٌّ،
ومُحَمَّدٌ حَقٌّ،

تأمل أولا هذا الترابط الوثيق بين هذا المقطع وسابقه وذلك بقوله (ولك الحمد) فهو– سبحانه– في المقطع الأول محمود على أسمائه الحسنى وصفاته العلا، وهو– سبحانه– في هذا المقطع محمود على أسمائه وصفاته وأفعاله ومخلوقاته فتآلفت الألفاظ لتآلف المعاني.

وتأمل ثانيا هذا العدول من الجمل الثلاث الطويلة التي تركب كل منها من ثماني كلمات عدا كلمة المطلع (اللهم) إلى جملٍ، كل جملة منها مركبة من كلمتين اثنتين، لا شك أن هذا العدول مؤذن بانتقال النفس من حالة إلى أخرى، إنه هناك في مطلع (الاستفتاح) قد أقبل على ربه سبحانه وهو يجمع نفسه، ويلملم شتاته، فالجمل الطويلة والثناء المبسوط فيه أريحية للنفس التي نزعت من زخم الدنيا إلى لذة المناجاة، فيذكر العبد الحمد لربه معللا بأسمائه الحسنى منوعا في الثناء بها، وهذا يقتضي طولا في الجملة، وبسطا في المناجاة، فإذا ما امتلأت النفس، وامتلأ القلب، وهيمن الخطاب للرب سبحانه، وسطعت في قلب العبد أنواره وقيوميّته وملكُه انتقل إلى حال آخر فتجاوبت المعاني، واستجابت التراكيب، وتقاصرت الجمل، وفي قصرها آية اللهَف في الخطاب، والشوق في المناجاة، والإلحاح في الإقبال، فإذا رأيت مع هذا حذو التركيب في الجمل التسع واحدا، والخطابَ واحدا، وختامها واحدا، أيقنت أن هذا الذاكر الضارع في نشوة لا تُعادل، وفي لذة لا تساميها لذة، لو علمها

الملوك وأبناء الملوك لجالدوهم عليها، وكل هذا يذوقه القلب، وتتلذذ به النفس الراضية، لكن كثيرا ما تتقاصر العبارة عنه؛ فاللهم ارزقنا لذة مناجاتك بما تحب وترضى.

وهكذا نرى هذه الجمل التسع القصار قد اعتلقت لفظا، وتآلفت معنى بقوله: (ولك الحمد) الذي كان فاتحة الجمل الثلاثة السابقة، وقد ختمت هذه الجمل التسع بلفظ واحد (الحق) معرفا أو منكرا فاشتد السبك وقوي التماسك أعظم ما يكون.

ثم تأتي (اللهم) معلنة افتتاح مقطع آخر متصل بسابقه برباط لفظي عمل على انسجام صوته، وحسن إيقاعه، وتلاحم أجزائه، مع ما هو الأصل من التعالق المعنوي والتواشج الرئيس .

وظل العبد على حال اللهفة بل اشتدت لهفته، فتقاصرت جمله أحيانا عن سابقتها وهو يتذلل لربه بقَصْر عباداته عليه، وتدبّرْ بقلب واعٍ وسمع مُلقى قوله:

اللَّهُمَّ

لَكَ أسلَمتُ،

وبِكَ آمَنتُ،

وعَلَيكَ تَوَكَّلتُ،

وإلَيكَ أنَبتُ،

وبِكَ خاصَمتُ،

وإلَيكَ حاكَمتُ،

هذه ست جمل قصار أيضا تنبيك بعدد كلماتها بدءا بشدة التحام نسقها بجمل سابقتها، ولم يكن بينهما فاصل سوى الكلمة الجامعة في صدر المقطع: (اللهم) وبها يستحضر العبد الداعي المقبل على الصلاة عظمة المعبود –جل وعلا– فيعيد دعاءه بأسمائه الحسنى كلها، كما دلت الميم في تلك الكلمة التي

هي مجمع الدعاء، ورافقتها الغنّة التي تناسب خشوع الداعي، وتكرارها أدعى إلى تجديد خشوعه.

فتأمل تلك الجمل بهذا الانسجام البالغ والتآلف البارع، ودع عنك حلاوة الشعر، وحسن وقعه، وبراعة نغمه، وبديع سحره، لأن ما نحن فيه منبعه قلب نبوي، ومقصده وجه عُلْوي، ومقامه قسَمَهُ الله بينه وبين عبده فتدفق هذا الثناء وانثال هذا الحمد، وتدبر...

فحين وصل المقطع السابق إلى قوله (ومحمد حق) ومحمد صلى الله عليه وسلم هو أول ذاكر بهذا الذكر– لما وصل إلى هذا – وفيه مدح له ﷺ وتخصيص بعد تعميم مدح النبيين –تواضع لربه، وذل له، فذكر إسلامه وهو يعني الاستسلام والخضوع للرب سبحانه (لك أسلمت) وذكر أنواعا من عباداته، وساقها جميعا بأسلوب القصر بطريق التقديم خاصة في كل جمله عدا جملة واحدة فـ"قدم صلات الأفعال المذكورة عليها؛ لإفادة الحصر."[1] ليقدم الرب في الذكر، ويؤخر ما يسنده إلى نفسه من عبادة، وهذا انسجام بالغ بين الأسلوب والمعنى .

ثم ترى انسجاما في المقدم، وانسجاما في المؤخر؛ فقد تآلف المقدم في الجمل فهو جار ومجرور، والمجرور كاف الخطاب للرب سبحانه عدا جملة واحدة: (لك وعليك وبك وإليك وبك وإليك). وفي المقابل تآلف وانسجام في المؤخر فما هو إلا عبادة مسندة إلى ضمير التكلم: (أسلمت، توكلت، آمنت، أنبت، خاصمت، حاكمت) وقد ازداد الانسجام بما اقتضته تاء التكلم من تسكين ما قبلها في كل الجمل، فانغلق المقطع بهذا السكون، ولم يخرج عن صوت الميم واللام والباء والنون، والميم والنون أختان في الغنة، والميم والباء

١) منحة الباري بشرح صحيح البخاري المسمى «تحفة الباري» المؤلف: زكريا بن محمد الأنصاري، ١٩٢/٣ – اعتنى بتحقيقه والتعليق عليه: سليمان بن دريع العازمي– الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية – الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

أختان في المخرج، واللام والنون متقاربتان فيه، وسكون هذه الأصوات بهذا التقارب القريب يحكي سكون الخاشع وتذلله بين يدي ربه، مع الهمس المنبعث بعد السكون من التاء التي سكنت للوقف عليها بما يقتضيه تقسيم الجمل وحسن تأديتها؛ وفاء لحق المتابعة وواجب التدبر .

فها هي الأصوات تتقارب في بنية تلك الكلمات فترى صوت الميم الذي بدأ مع(اللهم) وتتابع في (الحمد) يسري مع (أسلمت، آمنت، خاصمت، حاكمت) ليعطيك بهذه الغنة وانطباق الشفتين وجمعهما ما قد مر ذكر بعضه، وما يمكن أن يوحي به هنا من جمع العبادة. كما ترى اللام التى مثلت في (اللهم) مكررة تمتد لتراها هنا في (أسلمت وتوكلت) كما تراها في (لك وإليك وعليك) ومثل هذه الوشائج تقوي الاعتلاق، وتشد الرباط، وقد عمل هذا على حسن تآلفها الصوتي وبديع نظمها اللفظي وذلك عن طريق: (وحدة البناء، وتساوي المقدار، وتماثل الحروف) وبهذا يقوى الرباط وتشتد الصلة ويعظم التعلق فيقبل العبد على صلاته وقد استحضر عظمة ربه وجلاله واستوثق من ضعف نفسه وفقره فيكون ذلك أدعى للخشوع وأقرب للقبول.

وبعد هذه الجمل الست تأتي جملتان أخريان هما قوله: (أنت ربنا وإليك المصير) كل جملة منهما ركبت أيضا من كلمتين، وقد جللهما الخطاب لرب العباد كسائر جمل هذا المقطع إعلانا عن وحدة النسق، وقد جاءت المغايرة من جهة ما تراه من بناء؛ فالجملة الأولى (أنت ربنا) تباين نسق الجمل السابقة، فهي ليست كقوله: (لك أسلمت وبك آمنت)ونحوها مما تقدم فيها الجار والمجرور على متعلقه، وكذلك الجملة الثانية: (وإليك المصير) وإن تشابهت في صدرها حيث الجار والمجرور المقدم لكنها اختلفت في عجزها، حيث جاء اسما لا فعلا، وكسر الاطراد الصوتي وتباين نسقه يؤذن بأن المعنى غير سابقه؛ فإن هاتين الجملتين بمثابة التعليل للجمل السابقة كلها، فكل ما سبق من إسلام وإيمان وتوكل وإنابة و... مقصور عليك ربنا؛ لأنك أنت ربنا وإليك مصيرنا فاختلفت هيئة البناء لاختلاف المقصود وهذا التباين

رباط صوتي يعمل على إثارة الانتباه ويقظة النفس "وحين يكون الانتظام بين وحدات متكررة بينهما وجوه تناظر عديدة وبعض وجوه التغاير يتحقق الانسجام"[١]

والقلب الواعي والسمع الملقى لا يخطئه هذا التحول الصوتي الذي يتبع لا شك تحولا في المعنى؛ فإن هاتين الجملتين علة للأفعال السابقة ومجيء العلة مؤذن بدنو نهاية المعنى بما يشبه أن يكون قفل المقطع، وحسن غاية الحسن أن يجعل (المصير) هو قفل هذا الثناء فإن المصير هو المرجع إلى الله وهو النهاية الكبرى.

هذا وقد رتب على هذا الثناء دعاء تآلف صوتيا، وتناسق داخليا مع تناسبه للثناء المقدّم، فقال (فاغفر لي ما قدمت وما أخرت...

وقد جعل مفعول المغفرة متآلفا معنى، متناسقا صوتا ومبنى، متحدرا كالماء فهو يقول: (ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت)، فها هو لا يزال بوقع الجمل القصار، والتراكيب الموجزة، والتقسيم المنتظم، مع انتقاله من ثناء إلى دعاء، لكن يظل الانسجام ساريا.

وهذه قسمة رباعية انسجم صوتها مع انسجام معناها؛ إذ أحاطت هذه الأفعال بكل ما يقع من الذنوب، فالذنب إما أن يكون مقدّما أو مؤخرا، وكلاهما إما في السر أو العلن "والمقصود استيفاء المغفرة لأنواع الذنوب كلها،"[٢] ولذا بنيت هذه الجمل باسم الموصول العام (ما)، وكرره أربع مرات؛ ليدل بأصله على عموم ما يغفر، وبتكراره مع حذف عائده على تأكيد هذا العموم.

---

١) العزف على أنوار الذكر ص ٢٢٢

٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، المؤلف: أبو الحسن المباركفوري ٢٤٧/٨ – الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند – الطبعة: الثالثة – ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.

وتأتي الأفعال منسجمة داخليا بتقابل معانيها، وخارجيا بوحدة بنائها؛ حيث الأفعال الماضية المتقاربة الوزن بل المتحدة في المقطع الصوتي؛ حيث جاءت جميعا مركبة من مقطعين منغلقين وصوت متحرك بالضم (قدْ –دمْ – تُ/أخْ– خرْ –تُ/أسْ–رزْ –تُ/أعْ–لنْ–تُ) فاللسان بحركته وسكونه، وحركته وسكونه في تتابع مطرد أربع مرات يحكي اطراد حركة القلب وخفقانه، مع إسناد هذه الأفعال كلها إلى ضمير التكلم، وهي كلها بتشابهها صوتا تؤكد تشابهها من جهة إشفاق العبد منها جميعا، وحاجته إلى مغفرتها جميعا، وهذا لا شك يعمل على التوازن والتوازي بين هذه الأفعال مما يجلي تمام الانسجام الصوتي؛ فإن تقارن المؤتلف لمما يحسن به النظم ويشتد به الأسر. وإذا استحسن البلاغيون تناظر المعاني فإن تناظر الصيغ والألفاظ والمباني مع هذا لمما يزداد به الحسن ويروع به الجمال.

وقد زاد البخاري بعد هذه الجمل قوله: (وما أنت أعلم به مني) وقد تناسب معنويا مع سابقه بذكر العام بعد الخاص، وهو مما يرسخ المعنى ويعمقه، وفيه –مع ذلك– زيادة معنى وهو الإقرار بأن كل ما يكسبه العبد لا يخرج عن علم الله، فحري أن يُتَّقى ويُخشى ويُراقب.

وفيه أيضا انسجام صوتي مع سابقه حيث الموصول العام الذي يوثقه بما قبله، وصيغةُ الخطاب التي قَرنت هذا الدعاء بما سبق من الثناء، فاشتد التماسك وقوي السبك وحسن الوقع، وقرنته بما بعده من الثناء المعقود بالخطاب في جمله الخمس وهو قوله في الختام:

(أنت المقدم، وأنت المؤخر، أنت إلهي، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك).

أما الخطاب فظاهر أثَره شديد أسْره وقد وضع – والله أعلم – على ألّا يغيّب القلب عن مشهد الحضرة ولذة المناجاة. واحصر إن شئت ضمير الخطاب في هذا الاستفتاح وغيره كيف تجده حاضرا ظاهرا بصورة لا يخطئها سمع ولا قلب. وسيأتي في ثنايا البحث – إن شاء الله – تأمل بعض أسراره.

وهيئة بناء هذه الجمل رباط آخر بينها وبين سابقتها فالجمل الثلاث بنيت على لفظتين كما هو الغالب في هذا الاستفتاح، وكون المسند إليه (أنت) واحدا فيها مع إعادته بلفظه، ومجيء المسند متآزرا مع سوابقه لمما يشهد بحسن نظمه وعلو شأنه؛ إذ (المقدم والمؤخر والإله) من أسماء الله الحسنى، وهذا مناظر لمطلع هذا الاستفتاح، ففي صدره ثلاثة أسماء لله تعالى: (أنت قيم، أنت نور، أنت ملك) وهنا (أنت المقدم، وأنت المؤخر، أنت إلهي) فتأمل هذا التناسق والتوازي والتلاحم، ثم بين المقدم والمؤخر تقابل في المعنى، وازدواج في الثناء والدعاء، فلا يثنى به أو يدعى إلا مع الاسم الآخر كما نص على ذلك أهل العلم[١] ولذا جاء موصولا بالواو: (أنت المقدم، وأنت المؤخر) بخلاف ما بعده فقد جاء مفصولا: (أنت إلهي) ومعنى المقدم والمؤخر أي " يُقَدِّمُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ إلى رحمته بتوفيقه، ويوخر مَنْ يَشَاءُ عَنْ ذَلِكَ لِخِذْلَانِهِ"[٢]، وهذا مراد من قال: "إنه تعالى مقدم كل مقدم في الدنيا والآخرة، ومؤخر كل مؤخر في الدنيا والآخرة،."[٣]

وضمير الخطاب هنا في الجمل الثلاثة متقدم على نسق رفيع من البيان النبوي، وفي الجملتين الختاميتين جاء متأخرا وذلك قوله: (لا إله إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك) "أَيْ لَيْسَ لَنَا مَعْبُودٌ نَتَذَلَّلُ لَهُ وَنَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ فِي غُفْرَانِ ذُنُوبِنَا إِلَّا أَنْتَ"[٤]، وإنما جاء مؤخرا هنا؛ ليكون آخر ما يتلفظ به العبد هو خطاب الرب جل وعلا ، كما كان أول ما تلفظ به هو خطابه سبحانه؛ حيث افتتح بقوله: (اللهم لك الحمد) فهو سبحانه الأول والآخر، وهذا تناسب آخر

١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٤٨/٧
٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي ٤١/١٧ – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة: الثانية، ١٣٩٢
٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٤٨/٧
٤) نيل الأوطار محمد بن علي الشوكاني ٢٢٦/٢ – تحقيق: عصام الدين الصبابطي – الناشر: دار الحديث، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م

بين المطلع والختام. فتأمل هذه النكتة بقلب واع، وتأملها في سائر أقوال الصلاة حيث تفتتح بـ(الله أكبر) وتختتم بـ(السلام عليكم ورحمة الله) ليكون اسم الله مفتتحا ومختتما.

وقد انتظم هذا الحديث صوتيا برافدين كبيرين: الاقتران والتكرار، أما بلاغة الاقتران فكما ترى، قرن الحمد أولا بالقيّم والنور والملك والحق، فقال: (لك الحمد أنت قيم، ولك الحمد أنت نور، ولك الحمد أنت ملك، ولك الحمد أنت الحق) وبهذا الاقتران أحيط بالمعنى من وجوهه، ولهذا قَالَ الْكِرْمَانِيُّ رحمه الله: "هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ؛ لِأَنَّ لَفْظَ الْقَيِّمِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ وُجُودَ الْجَوَاهِرِ وَقِوَامَهَا مِنْهُ، وَالنُّورَ إِلَى أَنَّ الْأَعْرَاضَ أَيْضًا مِنْهُ، وَالْمُلْكَ إِلَى أَنَّهُ حَاكِمٌ عَلَيْهَا إِيجَادًا وَإِعْدَامًا، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فَلِهَذَا قَرَنَ كُلًّا مِنْهَا بِالْحَمْدِ وَخَصَّصَ الْحَمْدَ بِهِ"[1]

ثم أخذ (الحق) الذي كان مقرونا بالحمد ليجعله معادلا مكررا مقرونا بغيره، فقرن الحق بما يتعلق بالله –تعالى– فقال: (ووعدك الحق وقولك الحق ولقاؤك حق....) ثم يعيد (اللهم) لتتعالق مقاطع الاستفتاح على مدرجة الكلمة الأم التي هي مجمع الدعاء. ثم يبدأ الاقتران مرة أخرى فيقرن كاف الخطاب للرب سبحانه بأفعال العبد مسندة إلى ضميره؛ ليكون الاقتران بلازمتين الأولى: كاف الخطاب لله –تعالى– مع تنوع حروف الصلة، الثانية: تاء التكلم، مع تنوع المسند وكل هذا لاشك يعطي للألفاظ عذوبة، وللأصوات رقة، وللمعاني رسوخا. فإذا علم أن هذا الاستفتاح كان يقوله ﷺ في صلاة التهجد في قيام الليل – وهو محل الهدوء والسكينة، وقطع علائق الدنيا، والخلوة بالرب الأعظم بالثناء عليه والدنو منه والتلذذ بمناجاته– إذا علم هذا تجلى ما لهذا الانسجام الصوتي والمعنوي من أثر على القلب يبعث على السكينة ولذة المناجاة .

---

١) فتح الباري شرح صحيح البخاري المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني ٥/٣ – الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي

وثم روافد أخرى عملت على تآلف النظم الصوتي في هذا الاستفتاح وهي (وحدة البناء، وتساوي المقدار، وتباين التراكيب، وتماثل الحروف) وغير ذلك مما احتواه النظم النبوي لمن أحسن التدبر وأطال التفكر.

المبحث الثاني

الصور البلاغية وانسجام التأليف الصوتي

أولا: التكرار والانسجام الصوتي:

التكرار من خصائص كلام النبي ﷺ في عموم بيانه، وقد ورد الشرعُ بتكرار الأذكار، وفائدته – والله أعلم –:" أن الوساوسَ والغفلاتِ كثيرةُ الطروق للقلوب، والمقصودُ بالذكر الحضورُ ومُواطأةُ القلب للسان، فإذا كثرت أعداد الذكر رُجيَ أنه يحصل هذا المقصود، ولو مرةً واحدة، فتحصل الثمرةُ والثواب الموعود؛ "مَن استغفرَ اللهَ غفرَ لهُ "[١]

والتكرار يعد أجل ظاهرة بلاغية في مقام الدعاء والثناء لأن النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "كَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ يَدْعُوَ ثَلَاثًا وَيَسْتَغْفِرَ ثَلَاثًا)"[٢]

وللتكرار أثر بالغ في النسق الصوتي لعله يعد أظهر الأساليب البلاغية وقعا، وأشدها تأثيرا؛ فإن "التكرار المطرد المتلازم بين الأشياء المتنوّعة المتلاقية من وجوه عديدة متساوية متوازية متوازنة يخلق فيها الانسجام والتناسب الذى هو معدن الجمال فى الأشياء."[٣]

هذا، وللتكرار في الاستفتاح صور: منها: تكرار مفردة، وتكرار تركيب، وتكرار صورة، وتكرار جملة، وتكرار أكثر من جملة، ولكل أثره على النفس والقلب.

---

١) شرح الإلمام بأحاديث الأحكام المؤلف: بابن دقيق العيد ٢١٣/٣ – حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: محمد خلوف العبد الله – الناشر: دار النوادر، سوريا – الطبعة: الثانية، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م

٢) الدعاء للطبراني ٣٦/١ المحقق: مصطفى عبد القادر عطا – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت –الطبعة: الأولى، ١٤١٣

٣) العزف على أنوار الذكر ص ٢٢٢

فمن تكرار الكلمة:

تكرار الظرف (بين) في قوله: (اللهم باعد بيني وبين خطاياي) وقد ذكر الشرَّاح أن ذلك من مقتضيات الصنعة النحوية، فقالوا:" إن عود الخافض عند العطف على الضمير المخفوض لازم عند الأكثرين[١] إلا أن الكوفيين يجوزون العطف على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض[٢] كما في قول الشاعر:

فاليوم قَرَّبْتَ تَهْجُونَا وتَشْتِمُنَا ∴ فاذْهَبْ فما بك والأيّامِ من عَجَبِ[٣]

فكان يمكن على هذا المذهب أن يقال: (باعد بيني وخطاياي) لكن انظر إلى البون بينه وبين ما عليه النظم النبوي دلالة وصوتا؛ فهذا الظرف كأن في إعادته تطويحا للنفس أن تستقل بظرف وتطويحا للذنوب أن تستقل بظرف آخر؛ لتتحقق المباعدة، وتزداد في اللفظ كما هي في الواقع بين المشرق والمغرب، فكان في هذا التكرار زيادة في البينونة، ومدٌّ في المفارقة، وهذا في غاية الملاءمة للمقام فإن القصد هنا متعلق بالمكان، وأن يجعل العبد في موضع وخطاياه في موضع أبعد ما يكون منه، فلاءمه تكرار ما يخص المكان وهو الظرف .

فأفاد المباعدة البعيدة بينه وبين خطاياه بهذا التكرار، كما أفادها أيضا بأبلغ ما يكون في الفعل فجاء بصيغة المفاعلة (باعد) وهي "إما للمبالغة، أو

---

١) شرح سنن النسائي ٢٤٩/١ – المؤلف: محمد المختار الشنقيطي – الناشر: مطابع الحميضي (طبع على نفقة أحد المحسنين) الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ – وشرح سنن ابن ماجة ٣٧٤/٥ – المؤلف: محمد الأمين البُوَيطي– مراجعة لجنة من العلماء برئاسة: الأستاذ الدكتور هاشم محمد علي حسين مهدي– الناشر: دار المنهاج، المملكة العربية السعودية – جدة – الطبعة: الأولى، ١٤٣٩ هـ – ٢٠١٨ م

٢) شرح تسهيل الفوائد المؤلف: جمال الدين ابن مالك – ٣٧٦/٣ المحقق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة: الأولى (١٤١٠هـ – ١٩٩٠م)

٣) البيت من البسيط ، وهو بلا نسبة– الكتاب (١/ ٣٩٢) ، وشرح المفصل (٣/ ٧٨، ٧٩)

للتكثير"[١] كما أفادها بالتشبيه: (كما باعدت بين المشرق والمغرب) وليس شيء أبعد مما بين المشرق والمغرب "وموقع التشبيه أن التقاء المشرق والمغرب مستحيل، فكأنه أراد ألا يبقى لها منه اقتراب بالكلية،"[٢] وهكذا يتآلف التكرار رافدا صوتيا مع التشبيه وبنية الفعل في إفادة ما نصب له السياق.

ومن الكلمات الظاهرة التكرار: كلمة (الحق) في الاستفتاح الطويل: اللهم لك الحمد ... وفيه: ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق...) وهذا الحق قد تكرر حتى ملأ الاستفتاح، فما إن يذكره القلب واللسان حتى يعودا إليه من قريب في شوق لا ينقطع، ورغبة نفس لا تهدأ، حتى يوافيا الحق ويوافيهما الحق، واستمع وأنصت لصوت الحق يتكرر ليس بينه وبين الآخر سوى كلمة واحدة، وفتش النفس عما ترى من وقع اللفظ وهو يرسخ المعنى، وأثر الصوت وهو يعمق المقصد، وابحث واقطع العمر في البحث عن هذا الحق الذي ألح عليه الاستفتاح، واتَّبعه لأن فيه النجاة، واسأل النفس والقلب كيف كان وقع هذا الحق الطارق بابهما تسع مرات؟ وماذا لو جاء النظم النبوي : (ولك الحمد، أنت ووعدك وقولك ولقاؤك حق، والجنة والنار والساعة والنبيون ومحمد حق) أو لو ذكر الخبر وهو(الحق) مرة واحدة هل يفعل في القلب فعله وقد اقترن بكل مبتدأ على حدة؟ إنك ترى (الحق) على ما جاء به النظم النبوي لا يمل وهو يدعو إلى متابعته، ويعلن عن نفسه بحروفه لا بضميره، بحائه الرقيقة الحانية المتواشجة مع حاء الحمد، ثم بقافه المضعفة بما تحمل من جهر وشدة واستعلاء وقلقلة وانفتاح، تبدي الحق جهرا شديدا مستعليا، ولذا كان "تكرارُ الحقّ في تلك المواضع على جهة التأكيد، والتفخيم، والتعظيم لها"[٣].

---

١) شرح سنن النسائي ٢٤٩/١

٢) شرح سنن ابن ماجه ٣٧٤/٥

٣) شرح سنن النسائي المسمى «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى». المؤلف: محمد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي الوَلَّوِي ٣٢٢/١٧ الناشر: دار آل بروم للنشر والتوزيع.

بل "لِلْمُبَالَغَةِ فِي التَّأْكِيدِ"[1] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾

ثم ترى هذا الذاكر وهو في خطاب الرب بأنه الحق ووعده الحق وقوله الحق.....يبرز الحق مع كل جملة كالخاتم عليها، فيبسط الحق سلطانه على هذا العبد وهو يتابع ذكره في لهفة بالغة وأنفاس متتابعة، فليس بين الحق والحق سوى كلمة واحدة، كأن الحق يجذبه عن قرب، ويستدنيه عن كثب؛ فامتلأ بالحق قلبه ولسانه وأذنه، فتحول إلى الخضوع له والانكسار بين يديه سبحانه.

وماذا عن المسند إليه مع هذا الخبر المكرر (الحق) إنه لم يعد إلا أن يكون الحق سبحانه أو ما تعلق به عز اسمه فالتناسب جلي. وتأمل: (أنت، ووعدك، وقولك، ولقاؤك) وقد عقدت لفظا بضمير الخطاب لرب العباد، ثم الجنة والنار والساعة والنبيون ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وفي استفتاح آخر يكرر (ما) الموصولة بصورة واضحة وذلك في قوله: (فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت) إذ كان يمكن أن يقال: فاغفر لي ما قدمت وأخرت وأسررت وأعلنت، كما في قوله تعالى:﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2] لكن إعادة الموصول هنا تنبئ عن تنوع الواقع من العبد من الخطايا، فطلب بهذا التكرار مغفرةً لكل نوع حتى لا يبقى له أثر، وكان لذلك التكرار أثر صوتي يعمق تلك الدلالة المقصودة؛ فإنه كلما كرر العبد (ما) فجمع شفتيه على الميم، وأطلقها منفتحة صاعدة ممدودة بأطول صائت كأنه يجمع ذنوبه ثم يلقيها تتعلق بالمغفرة، فها هو يلقي ما قدّم، ويعود فيلقي ما أخّر، ويعود فيلقي ما أسرّ، ويعود فيلقي ما أعلن، فيعترف بكل

١) فتح الباري ٤/٣

٢) سورة الحديد من الآية: ١

ما اقترف، ويندم على كل ما قدم، لتلاقي المغفرة كل نوع على حدة لعله يفوز بها فيكون من المفلحين.

ومع تكرار الموصول كرّر حذف عائده، فلم يقل: ما قدمته وما أخرته....وقد أفاد ذلك العموم أيضا؛ لينضم إلى عموم ما دلت عليه (ما) وهي اسم موصول عام؛ ليشمل ذلك جميع أنواع الخطايا كبيرها وصغيرها، وقد أفاد تكرار الحذف إلى إيقاع تاء المتكلم آخرا وهو المخطئ المتعرض للمغفرة الطالب لها، وقد ازداد همس التاء، وخفت صوتها إذ وقعت طرفا لا سيما إذا سكنت للوقف عليها، ليحكي هذ الهمس حالة المذنب الوجل الذي تتقطع أنفاسه فيخفي حسا، وينطق همسا .

وفي المقابل كرر ضمير الخطاب في قوله في الاستفتاح نفسه : (أنت المقدم وأنت المؤخر) إذ يصح أن يقال أنت المقدم والمؤخر كما في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرِ**﴾ [1] فلم يعد الضمير.

وقد دل التكرار على حالة العبد وما غلبه وهو في مشهد الخطاب في طلب المغفرة فأثنى على ربه، وفي تكرار الخطاب للرب لذة تغمر القلب، فيبعثها اللسان صوتا شجيا، يدخل الأنس، ويمتع النفس، وقد صار الكلام جملتين متسقتين متوازنتين بتكرار المبتدأ وتقابل الخبر لا جملة واحدة .

ومن تكرار الجملة:

ما ورد في الاستفتاح رواه أحمد وابن أبي شيبة أن النبيﷺ (**كَانَ يُكَبِّرُ عَشْرًا، وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُسَبِّحُ عَشْرًا، وَيُهَلِّلُ عَشْرًا وَيَسْتَغْفِرُ عَشْرًا، وَيَقُولُ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي**) عَشْرًا، ويقولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الضِّيقِ يَومَ الْحِسَابِ عَشْرًا)

هذا أوسع تكرار ورد في الاستفتاح، وهو استفتاح مستقل كان يقوله صلى الله عليه وسلم في صلاة الليل، يكرر كل جملة ثناء أو دعاء عشر مرات، فآذن

---

١) سورة الحديد من الآية: ٢

اتحاد العدد من أول الأمر بحسن التنسيق وروعة التوفيق، فإذا كان هذا المكرر أحب الكلمات إلى الله، وأحب الكلمات إلى العبد استعذبه اللسان، واشتاقه الجَنان فتجلَّى التكرار في أبهى حلة، وأحسن هيئة، فها هو يبدأ ذاكرا (الله أكبر) يكرره عشر مرات، أي أن اللسان يعمل عملا واحدا منسوقا منضدا فيمر الصوت بما مر به عشر مرات متواليات، فيطرق أذنه أيضا عشر مرات متواليات، وفي هذا طرق متوال لباب القلب، وإيقاظ له، وتحريك لساكنه لعله ينتبه مرة، أو يتدبر حينا، فيبصر بين يدي من يقف ،وعلى من يقبل؛ فالأمر جلل، والشأن عظيم و"داعية التكرار قائمة في المواقف التي يكون فيها الأمر ذا شأن وخطر في الحياة الروحية والنفسية، فتقتضي الحال أن يقابل هذا الموقف بما ينبغي له من الحضور النفسي والعقلي، وهذا لا يكون إلا بالتنبيه على هذا الموقف والدعوة له والهتاف به، والتكرار أداة فعَّالة من أدوات الإيقاظ والتنبيه"[١]

فإذا تيقظ القلب وانتبه، وأقبل على ربه، وقبله ربه –سبحانه– فيا فوزه ويا بشراه، كما قال عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– : **(لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ تَقَبَّلَ مِنِّي سَجْدَةً وَاحِدَةً أَوْ صَدَقَةَ دِرْهَمٍ وَاحِدٍ لَمْ يَكُنْ غَائِبٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَوْتِ أَتَدْرِي مِمَّنْ يَتَقَبَّلُ اللَّهُ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)**[٢] فكم صلى ابن عمر –رضي الله عنهما– وكم سجد، ثم هو يقول هذا، فالعبد يكرر الذكر والدعاء لعله يحظى بالقبول، فيكون من الفائزين.

ثم إن في كل جملة هنا ذكرا للرب العلي بعلم الذات (الله) مكررا مرددا، وكثرة الذكر عنوان المحبة، وإذا ذهب النقاد إلى أنه "لا يجب للشاعر أن يكرر

---

١) إعجاز القرآن (الإعجاز في دراسات السابقين) عبد الكريم الخطيب الطبعة الأولى ١٩٧٤م الناشر دار الفكر العربي ص ٤٠٦

٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد البر ٢٥٦/٤ – تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب عام النشر: ١٣٨٧ هـ

اسماً إلا على جهة التشوق والاستعذاب"[١] "فمن أحب شيئا أكثر من ذكره بقلبه ولسانه"[٢].. فيقع في القلب موقعا لا يساميه غيره بل ولا يدانيه سواه؛ لأنه المحبوب الأعظم، وبذكره تطمئن القلوب، وتحيا الأفئدة، و"لِأَن العَبْد كلما أَكثر من ذكر المحبوب واستحضاره فِي قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضَاعف حبه، وتزايد شوقه إِلَيْهِ، وَاسْتولى على جَمِيع قلبه"[٣] فيجد العبد في تكراره لذة وفي ترداده شوقا فيعيده اللسان، وتتلقفه الآذان، فيكرر الثناء لعله يحظى بالقرب، ويكرر الدعاء لعله يفوز بالإجابة .

وهذا الاستفتاح بتكراراته المتوالية جمع بين خاصتي الائتلاف والاختلاف وكلاهما يفيد التمكين والتنوع مما يجدد في النفس مراقيها، ويشبع حاجاتها، فها هو يبدأ ذاكرا: (الله أكبر) فيقطع فيه شوطا، وهو عشر مرات، وتحديد العدد لحكمة يعلمها الله –سبحانه– وهو في الوقت نفسه دعوة لحضور القلب، فليس هو تكرار عشوائي حسبما اتفق، بل هو عدد معين، فها هو ينتهي من التكبير المسند إلى الرب ليبدأ شوطا ثانيا، وهو التسبيح ليماثل سابقه في العدد، مع تكرار المسند إليه وهو علم الذات (الله)، وكذلك حاله مع التحميد والتوحيد، ثم ينتقل العبد نقلة أخرى وذلك قوله: (أستغفر الله) وهذه تأتلف مع سابقتها في التصريح بعلم الذات (الله) مع اتحاد العدد أيضا، وتختلف معها في خصوصية المعنى، فالأول ذكر محض للرب الأعظم، وهذا تجديد للاستغفار من العبد

---

١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، المؤلف: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني ٢/٧٤ المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد – الناشر: دار الجيل الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م

٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية ص٢٦٤ – الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الطبعة: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ م

٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، المؤلف: ابن قيم الجوزية ٤٤٧ – المحقق: شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط الناشر: دار العروبة – الكويت الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ – ١٩٨٧

خبرا واعترافا بمقتضاه من الذنوب ليتهيأ به إلى طلبه وسؤاله (اللهم اغفر لي واهدني وارزقني [وعافني]) عشرا، ويقول: (اللهم إني أعوذ بك من الضيق يوم الحساب عشرا).

ثم تأمل هذا التكرار المتساوي في قوله:

(اللهم لك الحمد أنت نور السماوات الأرض ومن فيهن

ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن

[ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن]

هذه الجمل الثلاث تكررت كلماتها بهيئتها وترتيبها ووحدة صياغتها، ولم يختلف فيها إلا لفظ واحد وهو وصف الله تعالى: (نور – قيّم – ملك) وهذا التكرار والتوازي والتوازن أحدث في الكلام انسجاما والتئاما، فخف على اللسان وألفته الآذان، ولم يكن تكرارا محضا، بل إن اختلاف وصف الرب –سبحانه– الذي توسل به العبد المتضرع أعطى لسائر الألفاظ المتكررة لفظا تنوعا في المعنى ولذا قال الشراح ."كرّر الحمد للاهتمام بشأنه، ولينـاط به كل مرّة معنى آخر."[1]

وإذا أراد المتامل معرفة ما لهذا التكرار من أثر في الانسجام الصوتي والالتئام المعنوي فليذكر الحمد أول مرة فقط فيقول مثلا :(اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن وقيّمُهن ومَلِكُهن) فيترك تكرار الحمد، ويعود بالضمير على الأسماء الظاهرة المتقدمة دونها، ولينظر إلى حال المعنى، وحال اللفظ، وحال النفس في الحالين، لا ريب أنه يجد بونا شاسعا، فالكلام على ما جاء عليه النظم النبوي قد بلغ الغاية وأربى في الحسن بشطريه، أما اللفظ والصوت فينبيك عنه رهافة الحس، وأنس النفس، وشهادة الأذن، وصفاء السمع، وقد أومأ إلى ذلك ابن حجر وهو يرجح رواية على أخرى في هذا

١) المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود المؤلف: محمود محمد خطاب السبكي ١٨١/٥ –الناشر: مطبعة الاستقامة، القاهرة – مصر الطبعة: الأولى، ١٣٥١ – ١٣٥٣ هـ

الاستفتاح فقال: "قَوْلُهُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَاوَات كَذَا لِلْأَكْثَر، وللكشميهني: (لَك مُلْكُ السَّمَاوَات) وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ بِالسِّيَاقِ"[1] فقوله: والأول أشبه بالسياق- يعني رواية الأكثر- وهي (أنت مَلِك السماوات والأرض) يدل على عظيم العناية بهذا التشابه لأنه يحقق الانسجام والالتئام مع سابقه وهو قوله أنت قيم وأنت نور بالبناء على الاسمية دون المصدر.

وأما المعنى فقد "تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الحمد المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى" ولذا بني (الحمد)على التعريف بال الاستغراقية "ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه، ولا ينبغي إلا لمن هذا شأنه وهو الحميد المجيد" فإذا تكرر الحمد تكرر معه الثناء على الرب بكل أنواع الحمد، فإذا تعلق كل مرة بوصف من أوصافه -جل وعلا- تجدد معنى الحمد، فحمده -سبحانه- على أنه قيم السموات والأرض ومن فيهن يباين حمده على أنه نور السموات والأرض ومن فيهن، كما يباين حمده على أنه ملك السموات والأرض ومن فيهن، وبهذا اكتمل المعنى ، وحسن اللفظ، واتسق الصوت .

ومن تكرار الأسلوب:

تكرار ضرب من التشبيه كما في قوله ﷺ : **(اللَّهُمَّ باعِدْ بَينِى وبَينَ خَطاياىَ كما باعَدتَ بَينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِى مِن خَطاياىَ كما يُنَقَّى الثَّوبُ الأبيَضُ مِنَ الدَّنَسِ)** فهذان تشبيهان بنيا بصيغة الاشتقاق، فجاء المشبه به من جنس المشبه، وتأمل : باعد كما باعدت، نقني كما ينقى، فشبه مباعدة بمباعدة، وتنقية بتنقية وهذا الضرب من التشبيه له أثر في نسق الصوت وانسجامه، حيث يشعر في بدء الصورة التشبيهية بتقارب الوجه بين المشبه والمشبه به، بل باتحاده، وهذا أدخل في قرب الصلة وإحكام العلاقة

١) فتح الباري ٤/٣

بين الطرفين مع ترقب موضع المفارقة ومركز التباين ليتحقق التشبيه، حتى إذا وافى آخرها، وتجلى المقصود كانت النفس القائمة به قد امتلأت من شوقها إليه، وهذا -لا شك- يبعث على التلاحم الصوتي المؤتلف صدره المختلف عجزه، وهذه خاصية لهذا الضرب من التشبيه ومنه قوله تعالى: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**﴾ فشبه مرورا بمرور، وطيا بطي فوقع الائتلاف، ثم جاء المضاف إليه (السحاب)(السجل) فتحقق المقصود بالاختلاف. وله نماذج في الشعر كقول امرئ القيس:

يَغُطُّ غَطيطَ البَكرِ شُدَّ خِناقُهُ ∴ لِيَقتُلَني وَالمَرءُ لَيسَ بِقَتّالِ[1]

وقول المتنبي:

تَسيرُ سَيرَ النَعَمِ الأَرسالِ ∴ مُعتَمَّةً بِيَبِسِ الأَجذالِ[2]

ومما يقوي الاتساق الصوتي في هذه الصورة مجيء المشبه في الصورتين بصورة الفعل (باعد – نقني)؛ لأنه دعاء، فهو لم يقع بعد فناسبه التعبير بالفعل مع تعلق كل منهما بضمير التكلم، وهو مناط الصورة التشبيهية، والقصد في الدعاء إليه، فجلَّ ظهوره وتكراره، ثم تكرار الكاف أداة للتشبيه داخلة على (ما) المصدرية في الموضعين (كما باعدت – كما ينقى) فازداد التحام الأجزاء بين الجمل، وتشابه بناء النظم داخل الصورة، بل وتمت هندسة البناء صوتيا في اللسان والأذن بتساوي عدد كلمات هاتين الصورتين؛ إذ تركب كل منهما من عشر كلمات وتأمل:

اللَّهُمَّ باعِدْ بَينِي وبَينَ خَطايايَ كما باعَدتَ بَينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ،

---

١) ديوان امرئ القيس اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي ص ١٣٧ دار المعرفة بيروت – لبنان ، ط/٢ -١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م

٢) ديوان المتنبي ص ٥٦٢ دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م

اللَّهُمَّ نَقِّنِى مِن خَطايَاىَ كما يُنَقَّى الثَّوبُ الأبيَضُ مِنَ الدَّنَسِ.

فأي نظم هذا ؟ وأي معنى يحمله؟ وأية هندسة تلك؟ بل أي إيقاع منسجم ذلك؟؟

ومنه: تتابع أسلوب القصر

كما في قوله ﷺ :

فَاغْفِرْ لِي ذَنْبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ،
وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ،
وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ،

فقد اتسق الصوت وانسجم على مدرجة أسلوب القصر المتتابع ثلاث مرات بطريق النفي والاستثناء، فقصر هذه الصفات على الله –سبحانه وتعالى– قصرا حقيقيا تحقيقيا؛ لأنها من خصائصه سبحانه التي لا يشاركه فيها غيره، وليس فيها منازعة ولا إنكار، وإنما جاء بالنفي والاستثناء لزيادة تمكين الدعاء وتجلية حال العبد المتضرع المشفق من ذنوبه شديد الرغبة في المغفرة والهداية، عظيم الرهبة من سيء الأخلاق، فكان في النفي والاستثناء تصوير لهذا الصراع المحتدم بين العبد وذنوبه وأخلاقه .

وهذا الانسجام الصوتي متأت من تكرار وحدة النسق؛ حيث وحدة الأسلوب وهو القصر، ووحدة طريقه وهو النفي والاستثناء في جميعها، ووحدة مجيء المقصور في المواضع الثلاثة فعلا ، مضارعا، مقيدا، منسولًا بالتجانس الاشتقاقي من فعل الدعاء ومتعلقه .

وتأمل ... فقد جاء قوله: (لا يغفر الذنوب) منسولا من قوله: (فاغفر لي ذنبي) وقوله: (لا يهدي لأحسنها) من قوله: (اهدني لأحسن الأخلاق) وقوله: (لا يصرف عني سيئها) من قوله: (واصرف عني سيئها) وهذا الاشتقاق على ما ترى يملأ موضعه من الكلام، ويفيض، وهو أثر لما امتلأ به قلب العبد من حاجته لمغفرة الذنوب وحسن الخلق، فأحدث بهذا الاشتقاق ذلك الأثر الصوتي

الدال على ما في القلب، فملأ اللسان والأذن كما ملأ القلب والنفس. ثم ختم وحدات الاتساق بمجيء المقصور عليه في الجمل الثلاث ضميرا مخاطبا منفصلا (أنت) فتجاوبت دفقات النفس وخفقات القلب مع هذا الانتظام المنضد على وحدة الاتساق وطواعية المساق.

ومثل هذا الاطراد بالتكرار يعضد الدلالة الأصيلة للأسلوب، فإذا أفاد القصر في أصله التوكيد تمكّن وازدادت فعاليته معنى وجرسا بالتكرار.

ثانيًا: التعريف والانسجام الصوتي

لا تخرج أدعية الاستفتاح عن معنيين: الثناء والدعاء، لذا كان من المناسب معنى أن يكثر الإسناد إلى الرب وإلى العبد؛ فالرب هو المثنى عليه والمدعوّ، والعبد هو المثني والداعي، وكان من تمام الانسجام الصوتي والمعنوي كثرة تعريف الرب –سبحانه– بضمير الخطاب، وتعريف العبد بضمير التكلم، وهذا هو الغالب –أيضا– في مطلق الدعاء ومن تأمل ضراعات الكتاب والسنة يرى ذلك واضحا.

وقد ورد تعريف الرب –عز وجل– في مجموع الاستفتاحات ثماني وخمسين مرة، وهذا ملائم غاية الملاءمة لمقام الداعي، لا سيما وهو متلبس بالعبادة، مقبل على ربه بوجهه وقلبه مستحضرا جلاله وعظمته، وهو لا يفتأ يناجيه، ويسأله حاجته من مغفرة الذنوب ومحو العيوب . ولا ريب أن في إيثار ضمير الخطاب وتكراره والإلحاح عليه مزيد إحساس بالقرب والدنو من ربه، فها هو واقف بين يديه في أجلّ موقف وأبهاه، وقد استحضر بقلبه عظمته وجلاله – سبحانه– فعقد نيته على الصلاة، ثم عظمه بقلبه ولسانه فضرع بتكبيرة الإحرام (الله أكبر) بما تنطوي عليه من إعلان المفارقة لأحوال الدنيا وشواغلها مهما كبرت وعظمت، والانصراف إلى الذي فطر السماوات والأرض بهذا الإعلان الصريح بأنه –سبحانه– أكبر فإذا قام في قلب العبد هذا المعنى أحسّ بالقرب من الملك الأعظم، فناجاه بالخطاب، وكرره في الثناء والدعاء بعد تقديم الاسم الظاهر الجامع (اللهم) كما في قوله ﷺ:

(سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمدِكَ، وتَبارَكَ اسمُكَ، وتَعالَى جَدُّكَ، ولا إلَهَ غَيرُك)

فقد تكرر كاف الخطاب في هذا الاستفتاح الموجز خمس مرات ، وترى في هذا الدعاء محض الثناء على الرب فبدأ بالتنزيه(سبحانك) وثنى بالتحميد (وبحمدك) وثلّث بالبركة الثابتة لله –تعالى– في أسمائه وصفاته وأفعاله، وختم بالتوحيد.

وفي كل ثناء من هذه الثناءات يثبت ضمير الخطاب للرب الجليل بصورة واحدة، بكاف الخطاب، بهمسه، وشدته، وملازمة تحريكه بالفتح، وبه ينسجم الصوت، وتتأكد العلاقة بين التسبيح والتحميد والتعالي والتوحيد، ويشهد القلب بهذا الخطاب أن المتوجه إليه هو المسبح، وهو المحمود، وهو المتعالي، وهو الواحد لا إله غيره، فلا يغيب العبد عن مشهد الخطاب، ولا يذهل عن إقبال الرب عليه، فيظل الخطاب مالئا قلبه ولسانه، فتفيض لذة القلب بالحضور، فيظهرها اللسان بالخطاب متجاوبة متناغمة، قد عَقدت بوشائج حسنها بين مقاطع الثناء، فاشتد سبك اللفظ مؤازرا حبك المعنى الذي تراه بين التسبيح والتحميد والبركة والتعالي والتوحيد للرب العظيم ذي الجلال والإكرام، وبهذا الانسجام يتواطأ اللسان مع القلب، وبه تكون روح الصلاة، ويتحقق العقل منها فليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها.

وتلحظ هنا أنه يصرح بما هو علم في الدعاء وهو قوله (اللهم) لكنه لما كان السياق هنا للثناء الخالص أخره عن موضع الصدارة فلم يقل: اللهم سبحانك بل قال: (سبحانك اللهم) فكان السياق للتنزيه والثناء، ومجيء (اللهم) لبيان جهة الخطاب، وتوكيد المعنى، وتخصيص المدعو، وأن هذا إنما هو لله وحده لا لغيره، وليعلم –من أول الأمر– أن الخطاب مقصود، وأنه قد ملأ القلب حتى استهل به الثناء، وأخر النداء الذي له حق الصدارة، وفيه المبالغة في إظهار التلبية إلى السيد العظيم، وقد دعاه للقائه فلا يحسن به أن يناديه إلا وقد نزهه، ومجده كما يقول العبد: لبيك سيدي؛ إظهارا لتمام الطاعة وكمال التعظيم.

إن هذا الخطاب الذي أفعم كلمات هذا الاستفتاح، وامتلأ بكاف الخطاب يعطيك بهمسه وشدته وحركته ما يصور حالة العبد المسبح ربه، فالهمس وحركات الفتح تكشف عن رقة الذكر ووداعة التسبيح وضراعة المسبِّح ،أما الاحتكاك والشدة في صوت الكاف فيصوران لهفة المستفتح وشدة امتلاء قلبه بالرغبة والرهبة والرجاء والإشفاق .

ومثله قوله ﷺ **(اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ أنتَ نورُ السَّمواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ،...)** الحديث

وهو من استفتاحات الليل التي كان النبي ﷺ يستفتح بها صلاة التهجد، وقد تكرر فيها الخطاب للرب الأعلى خمسًا وعشرين مرة حتى كاد الخطاب لا يغيب عن كل جملة مع وجازتها وقصرها، وهذا انسجام صوتي آخر وقد تنوع الخطاب فيها، فتارة بالكاف، وأخرى بالضمير المنفصل (أنت) وقد تناوبا وانسجما فأحدثا ما تحسه النفس من سلاسة الأسلوب وانسجام اللفظ وتأمل قوله ﷺ:

اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ أنتَ نورُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ،
ولَكَ الحَمدُ أنتَ قَيِّمُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ،
ولَكَ الحَمدُ أنتَ مَلِكُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ،
ولَكَ الحَمدُ أنتَ الحقُّ، ووَعدُكَ الحقُّ، وقَولُكَ حَقٌّ، ولِقاؤُكَ حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنّارُ حَقٌّ، والسّاعَةُ حَقٌّ، والنَّبيّونَ حَقٌّ، ومُحَمَّدٌ – صلى الله عليه وسلم – حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أسلَمتُ، وبِكَ آمَنتُ، وعَلَيكَ تَوَكَّلتُ، وإلَيكَ أنَبتُ، وبِكَ خاصَمتُ، وإلَيكَ حاكَمتُ، أَنتَ رَبُّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ فاغفِرْ لِي ما قَدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرتُ وما أعلَنتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أنتَ المُقَدِّمُ وأنتَ المُؤَخِّرُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إلَهَ إلا أنتَ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا بِكَ".

كيف تستقبل النفس الصافية والقلب المعافى هذا الخطاب الشجيّ المتوازي (لك الحمد أنت) وقد تكرر أربع مرات متوالية، وفي التكرار انسجام صوتي آخر، لكن القصد هنا إلى ذلك الخطاب المنضّد بأسلوب لا ينقضي منه

العجب، فيخاطب العبد ربه بالحمد ليخاطب ربه بالنور، ويخاطبه بالحمد ليخاطبه بالقيوميّة، ويخاطبه بالحمد ليخاطبه بالملك، ويخاطبه بالحمد ليخاطبه بالحق، فأية لذة ملأت هذا القلب؟ وأي إحساس غلب عليه؟ وأي تعريف للرب يقوم به قلب العابد وهو في هذا المقام راغبا راهبا حامدا معظما مكبرا؟ ليس شيء سوى الخطاب، ثم الخطاب، ثم الخطاب .... ولذته، والحضور وهيمنته، وإقبال العبد على الرب إقبالا لا يشغله عنه شاغل، بل ولا يقوم فيه سواه، فيوقع حمد ربه بين خطابين سابق ولاحق (لك الحمد أنت ..) فيخصه سبحانه بالحمد بتقديم هذا الخطاب، فالحمد مقصور على الله –سبحانه– وهو المخاطب به، وناسب ذلك معنى وصوتا أن يعلل لقصر الحمد على المخاطب –سبحانه– بما هو للمخاطب –جل وعلا– فقال (أنت قيم– أنت نور– أنت ملك) فأوقع الخطاب تعليلا للخطاب، فأنت المحمود وحدك؛ لأنك أنت القيم وحدك، وأنت النور وحدك وأنت الملك وحدك، وبهذا يحقق الخطاب ما ملأ النفس من شوق، وما غلبها من لهفة، وما فاض عليها من تعظيم، وما غمرها من رغبة، وهي مقبلة على لقاء الرب في أجل عبادة قسمها الله بينه وبين عبده.

ونرى كيف ينتظم الصوت بهذا التناسق فينتقل من كاف الخطاب إلى الضمير المنفصل : لك الحمد أنت – لك الحمد أنت– لك الحمد أنت

ففي قصر الحمد على الله –تعالى– يأتي كاف الخطاب بما فيها من همس وشدة، وقد سبقت باللام وهي "أكثر الحروف دورانًا في كلام العرب للطفها وضعفها ورقّتها حيث كانت، ولا تكون هذه الرقّة التي فيها إلَّا مشوبةً ببعض القوَّة والشدَّة، فهي إذن أعدل الحروف وأحسنها استواءً"[1] وهي بذلك تضارع الكاف من حيث الهمس والرقة المشوبة بشيء من القوة، وهذا يؤازره صوتيا بناء ضمير الخطاب المنفصل (أنت) فالهمزة شديدة قوية تحتاج في نطقها إلى

١) جمهرة مقالات الشيخ شاكر ٢/٧٣١

مزيد جهد، أما النون التي تليها فهي "حرفٌ دَمِثٌ طيع مترفِّه ناعمٌ حُلو النَّغم لطيفُ الترديدِ، يسيلُ مع الهواءِ لينًا ونعومةً ورقة، لا تدركه الجفوةُ التي تعرض لسائر الحروف مع التحريك إذا حُرّك، فهو لطيفٌ مطاوع ذو نَغَم إذا حُرك أو سُكن."[1] والتاء شديدة لكنها مهموسة، فتأمل هذا التجاوب بين أصوات الشدة واللين، واقتران الكلمات المتماثلة في البناء الصوتي المتآزرة في تصوير المعنى المقصود، فإن هذا الامتزاج يتلاقى وحالة العبد التي تتمازج فيها الرغبة والرهبة، ويمور داخلها الرجاء والإشفاق، وهو يخاطب ربه متْبِعا الخطاب الخطاب، والحذو الحذو، مكررا ذلك دون سأم أو ملل أو انقطاع أو فتور، بل يظل الخطاب ساريا في جمل هذا الاستفتاح واصلا العبد بالرب، يهمس في شدة بكافه وتائه حتى يصل إلى ختامه فيخاطب ربه بقوله(ولا حول ولا قوة إلا بك) ليبقى صوت الخطاب آخرا كما كان أولا .

هذا في تعريف الرب سبحانه بضمير الخطاب، وفي المقابل تجد تعريف العبد نفسه بضمير التكلم، وهو القائم بين يدي ربه الأعلى مناجيا مثنيا عليه –سبحانه– في استفتاح صلاته، وقد تكرر في مجموع أدعية الاستفتاح إحدى وأربعين مرة، وهي ما بين ياء التكلم وتائه والضمير المنفصل أنا، وهذه النسبة تقع على مقربة من ضمير الخطاب للرب سبحانه.

وضمير التكلم في مقام الاعتراف وإظهار الخضوع والذلة أليق بالمعنى، وألصق مناسبة بصوته الدال في مقامه – وقد بني في جل مواضع وروده على صوت واحد ياء التكلم أو تائه– على التذلل والخضوع.

وإذ قد ناسب الاستفتاح ضمير الخطاب للمُثْنَى عليه سبحانه المدعو المعظم فقد ناسبه في المقابل ذكر المثني وهو العبد، وتعريفه بضمير التكلم، وبه يظهر العبد فاقته وذلته وانكساره بين يدي ربه، ولم يعرِّف نفسه بالعبودية إلا في موضع واحد وقد جاء خبرا عن ضمير التكلم أيضا في قوله : (أنا

---

١) السابق ٢/٧٣٢

عبدك) فإنه لا يذكر نفسه إلا خاضعا، ولا يعول على عبادته شيئا وهو مقبل على عبادة ربه؛ إذ لولا رحمته سبحانه بعبده وإعانته إياه ما صلى، ولا عبد، ولا يدخل الجنة بعمله – وإن كان مأمورا به مجزيا عليه– إلا بمحض رحمته، وخالص عفوه –سبحانه– فناسب التعريف بضمير الذلة والانكسار وطرح النفس مستكينة .

وتأمل كل موضع ذكر العبد فيه نفسه بهذا الضمير كيف أبان عن فقره وكشف عن ذله يقول (باعد بيني وبين خطاياي نقني من خطاياي اغسلني من خطاياي) ويقول: (ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنبي) ويقول: (فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني) وغير ذلك من مواضع وروده ... ألا ترى كيف ألصق نفسه بالذنوب والخطايا معترفا نادما مليما، فتناسق هذا الضمير ليخلع عن العبد رداء كبره وسطوته وجبروته وعلوه في الأرض ليلبسه رداء الذلة والانكسار، ويزينه بالتواضع والإخبات، كل ذلك أداه صوت التكلم بمعونة السياق، فما هو إلا ضمير في كلمة حرف أو حرفين، يبرز على استحياء، وينجم في خجل، فما قوله عن نفسه إلا (خطاياي ، خطاياي ، خطاياي – ذنبي – ظلمت نفسي واعترفت بذنبي ...) وهكذا... يظل اللسان يردد ضمير النفس لعله يتواطأ مع القلب ليبلغ العبد مراده من مغفرة الذنوب، هكذا دائمًا يشكو إلى ربه جدبه وقحطه وضرورته إلى سقيا رحمته، وغيث بره فهذا دأب العبد أيام حياته.

وقد فخم شأن النسق الصوتي هذا الاقتران التعريفي للرب والعبد، فتجد ضمائر الخطاب مقرونة بضمائر التكلم؛ لينسجم الصوت على هذا الوجه البلاغي غاية الانسجام .

وتأمل قوله: **(اللَّهُمَّ لَكَ أسلَمتُ، وبِكَ آمَنتُ، وعَلَيكَ تَوَكَّلتُ، وإلَيكَ أنَبتُ، وبِكَ خاصَمتُ، وإلَيكَ حاكَمتُ)** تر كل تعريف بالخطاب قد قرن بتعريف بالتكلم، فكاف الخطاب تقابها تاء التكلم، وفي هذا الاقتران تعميق التناسب معنى ولفظا وصوتا إذ نرى هذا التعانق بين الداعي والمدعو، والمثني والمثنى عليه في تواز بديع

يجلي عظمة الرب –سبحانه– وضراعة العبد وانطراحه بين يدي ربه المتعال، مقدما خطاب الرب على ضمير النفس تقديما أفاد حصر تلك العبادات على الرب –سبحانه– ، فحقق العبد بهذا التقديم توحيد العبادة، فلا يسلم إلا لربه، ولا يؤمن إلا به، ولا يتوكل إلا عليه ....وهذا الخطاب المطرد بكافه ، والتكلم المطرد بتائه أشبها الدفقات المتتالية المتناظرة تحكي خفقات قلب العبد بين يدي الرب في مشهد الخطاب؛ فيتحرك اللسان حركات متحدة أو متقاربة تظهر حركات القلب وسكناته، وهو يهمس خطابا وتكلما، يعلوه الخشوع، وتغشاه الهيبة. ولا ينكر أثر هذا على النفس لا سيما إن نقيت من شوائب الغفلة وكدر المشغلة.

الجناس الاشتقاقي والتناسب الصوتي:

ورد الجناس الاشتقاقي في مجموع الاستفتاح سبع مرات هي قوله:

(وجهت وجهي)، (باعد كما باعدت)، (نقني كما ينقى)، (اغفر ... فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)، (اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت)، (واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت)، (اهدني إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)

وهذا الاشتقاق عمل على تحقق التجاوب الصوتي الداخلي؛ مما يحكم الوشائج، ويقوي العلائق، ويسلس اللفظ لا سيما وقد ألح عليه المعنى، وجد في طلبه.

وتأمل –أولا– مدى إلحاح المعنى على هذا التجانس؛ ففي قوله: (وجهت وجهي) ترى ما الذي يوجهه العابد وهو مقبل على صلاته؟ إن أشرف ما في الإنسان قلبه، وهو ملك البدن، ولما كان القلب باطنا دل على ما يتبعه فذكر الوجه، "والباطن هو الأصل، والظاهر هو الكمال والشعار، فإذا توجه قلبه إلى شيء تبعه وجهه الظاهر"[1] "فالوجه توجه حيث توجه القلب، فصار قلبه وقصده

---

١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المؤلف: تقي الدين ابن تيمية ص ٥٩ – الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ

ووجهه متوجهًا إلى الله تعالى"[1] فهو يتوجه بذاته قلبا وقالبا، وقد عمل هذا التجانس على تمكين المعنى؛ فإن العبد قام بين يدي ربه يناجيه، وأصدق دليل ظاهر على الإقبال على المناجَى هو نصب الوجه قِبَله، فصاغ من الوجه الذي هو علامة الإقبال وآية الامتثال فعلا متعديا يبين إرادة العبد وقصده، فنسب هذا إلى نفسه فقال: (وجهت وجهي) ولم يأت به لازما منسوبا إلى الوجه، بأن يقول: توجه وجهي؛ ليكون العبد فاعلا مختارا عابدا قاصدا. فمكن التوجه بهذا الاشتقاق الذي أحدث مع تمكين المعنى عذوبة اللفظ بترداد التوجه، لاسيما وقد أعان التضعيف في الفعل على إظهار المبالغة فيه صوتا ومعنى.

ومن تجنيس الاشتقاق قوله ﷺ :

فاغفر لي ذنبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ،

واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت،

واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت،

ترى هنا تجانسا اشتقاقيا أوسع من سابقه، وهذه كلها في استفتاح واحد، والأول ثناء على الرب بتوجيه الوجه والقصد والعبادة له وحده، أما هذه فأدعية وضراعات نبوية، وقد صيغت هذه الأدعية بهذا الاشتقاق على ما أريد منها من تحقيق آداب الدعاء؛ فإن الداعي ينبغي أن يدعو الله باسم أو صفة تناسب دعاءه، فيقول: يا غفور اغفر لي، يا رحيم ارحمني، يا معلم إبراهيم علمني... وهكذا كما نص على ذلك أهل العلم، فلما دعا هنا بالمغفرة توسل إلى الله بصفة المغفرة التي لا يشاركه فيها غيره، ودعا بالهداية فتوسل إلى الله بصفة الهداية التي لا يشاركه فيها غيره، فكان التجانس الاشتقاقي محققا أدب الدعاء، ورسوخ المعنى، وانسجام اللفظ، وتنسيق الصوت، وزادها انسجاما

---

١) مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه – المؤلف: محمد بن علي بن آدم بن موسى ٢١٩/٤ – الناشر: دار المغني، الرياض – المملكة العربية السعودية – الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م

تتابعها على حذو واحد وسَنن مطرد، وهذا يأخذ النفس مأخذها في التعلق بالرب –سبحانه– وتحقيق التوحيد في الدعاء .

وجاء التجانس بأثره الصوتي العالي متجاوبا مع حالة العبد وقد استحضر ذنوبه ووحشتها ، وأخلاقه ورغبته في أحسنها، ورهبته من سيئها، فعظم الإلحاح، واتسع الاشتقاق، فجانس بين الأفعال والأسماء في كل دعاء مرتين؛ فقال: (فاغفر لي ذنبي ...فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) ومثله ما بعده؛ ليتجاوب الصوت مع تجاوب الرغبة والرهبة، وهذا من أجل الأحوال التي يكون عليها العبد في الدعاء.

الازدواج والفاصلة والتناسب الصوتي:

قال صاحب الصناعتين: "لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن؛ لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلا عما تزاوج في الفواصل منه" [١]

والازدواج يعني اعتدال مقاطع الكلام، وهذا يتبع المعنى، فترى أن كل معقد تزاوجت جمله أو تراكيبه قد عقد على معنى خاص، فإذا عدل عن هذا الازدواج أبصرت عدولا في المعنى وتفريعا للدخول في معنى آخر خاص وهكذا، وبين المعقدين أو المعاقد رباط جامع يتنوع بتنوع مقتضاه "وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان، وهذا لا مراء فيه لوضوحه."[٢]

---

١) الصناعتين المؤلف: أبو هلال العسكري ص٢٦٠ ، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت عام النشر: ١٤١٩ هـ

٢) المثل السائر ٢٩١/١

وقد نص أهل العلم على أن "الاعتدال مقصد من مقاصد العقلاء يميل إليه الطبع وتتشوق إليه النفس،"[1] ولا ريب أن أول ما يروق منه ويحسن صوته في الأذن، ووقعه في السمع فترى المقطع يبرق إذا وافى شبيهه، وقارنه نظيره. وتأمل قوله ﷺ في الاستفتاح:

(اللَّهُمَّ باعِدْ بَيْنِى وبَينَ خَطايايَ كما باعَدتَ بَينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ، اللَّهُمَّ نَقّنِى مِن خَطايايَ كما يُنَقَّى الثَّوبُ الأبيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغسِلنِى مِن خَطايايَ بالثَّلجِ والماءِ والبَرَدِ)

وقد جاء التوازن هنا بوحدة الحذو، وتوافق التركيب؛ حيث استفتح الجمل الثلاث بـ(اللهم) وأتبعه بفعل أمر قصد به الدعاء (باعد، نقني، اغسلني)، ثم تعلق كل فعل منها بضمير التكلم، فهاهنا ترى للكلام مع كل جملة مقاطع متميزة تنبئ عن توازنها وانسجامها والتفافها حول معنى واحد وهو التنقية من الخطايا.

وقوله: (أنت ربي، وأنا عبدك) (ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي)

فقوله: (أنت ربي) قسيم قوله: (وأنا عبدك) والصلاة نصفان، وهي مناجاة بين العبد والرب، فلاءمها الاعتراف من العبد بالربوبية لربه، والعبودية لنفسه، وتم التوازن هنا بمساواة اللفظ أولا، ثم بوحدة الحذو ثانيا؛ حيث جاءت كل جملة من مبتدأ وخبر، المبتدأ فيهما ضمير، والخبر فيهما مضاف إلى ضمير، ثم تم التوازن وزاد الاعتدال بالتقابل بين الجملتين مما حقق التوازن الداخلي، ولا شك أن هذا له الأثر البالغ في النفس وهي تلهج بهذا الثناء الخاشع .

وتبع هذا الاعتدال والتوازن توازن آخر في قوله: **(ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي)** وهاتان الجملتان منسولتان من الطرف الثاني في المقابلة الأولى وهو قوله: (وأنا عبدك) فالظلم والاعتراف خاصان بالعبد. وتأمل كيف أوقع هاتين

---

١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المؤلف: يحيى بن حمزة العلويّ ١٣/٣ – الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

الجملتين بتوازن بديع وافق المعنى؛ حيث طال أولا زمن النطق شيئا، ثم برز ضمير التكلم في كل كلمة، فجاء أربع مرات في اعتدال تام حيث تاء التكلم ويأوه مرتين متواليتين؛ لأنه مناط المعنى؛ إذ العبد في مقام الاعتراف فنسب كل شيء إلى نفسه؛ ليحقق العبودية، وليطرح نفسه بين يدي ربه لعله ينجو؛ فإنه لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه.

وزاد التوازن هنا وحسنه اتحاد الفاصلة حيت ياء التكلم التي لاءم المعنى ظهورها كما مر، ولاءم صوتها، وحركة ما قبلها وهو الكسر، وما يتطلبه من مد يطول مع مجرى الهواء المندفع من الجوف يميل إلى السفل "وإذا تحرك ما قبل الياء الساكنة بالكسر فإنها تعطينا صورة الحفرة العميقة والوادي السحيق،.. لتشف الياء في هذه الحالة عما في صميم الإنسان أو الأشياء من المتأصلة فيها"[1] مما تعين على تجليته قرائن السياق. فتأمل تلك الهوة السحيقة التي ينجر فيها المرء بذنوبه ويظلم نفسه فيتوافق هذا الصوت الممدود بالكسر في (نفسي، وذنبي) مع ما تحس به تلك النفس، فتبعث هذا الصوت الخاشع الوجل.

وتأمل ذلك التوازن بانسجام الفاصلة في قوله: (لبيك وسعديك ، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك)

وقد مثلت الفاصلة هنا رباطا جامعا وحبلا متينا لمعاني المفردات والجمل، لا سيما والفاصلة حرف احتكاكي شديد مهموس يضرب سقف الحنك كلما مر به خاصة عند الوقف عليه كما تقتضيه بلاغة الفاصلة، وهذ الاحتكاك يؤازر جؤار العبد، وهو يلهج بالثناء: **(لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك ، لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك)**

١) خصائص الحروف العربية ص: ٩٩

ومثله وقوله: ﷺ **(سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمدِكَ، وتَبارَكَ اسمُكَ، وتَعالَى جَدُّكَ، ولا إلَهَ غَيرُك)**

فالتسبيح والتحميد والبركة والتعالي والجد والوحدانية هي للرب سبحانه المخاطب بهذا الصوت المعقود فاصلة، فالمستفتح بهذا حين يختم كل تعظيم منها إنما يختمه بالمعظَّم نفسِه –سبحانه– فيتذوق حلاوة اللفظ، وقد ذاق حلاوة الإيمان.

وفي المقابل ترى فاصلة أفعال العبد بتاء التكلم في قوله ﷺ :

(اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت)

هذه الفرائد منظومة كالدر، منضدة كالنجوم، فهاهنا ترى المزاوجة، والموازنة، واتحاد الفواصل، وهذا كله يوقع المعاني في النفس وقوعا منسجما تلتقطها الأسماع الصافية، وتذوقها القلوب الحانية وهي مختومة بتاء المتكلم التي اقتضى حسن الأداء الوقوف عليها، وقد ذكر العلماء أن أثر الفاصلة معقود على أن تكون ساكنة، فلننطقها ساكنة، والسكون سكون، والتاء بطبيعتها تذوب همسا، فكيف بها وقد سبقت بساكن اقتضاه الإعراب **(توكلْت آمنْت أنبْت خاصمْت حاكمْت)** فازدادت تاء الفاصلة همسا وخفاء لا يكاد يبين مهما رفع الصوت، وازداد النبر، وهذا الهمس الخافت، والسكون الهادئ المتتابع المتكرر ست مرات، ثم يفصل بجملتين هما **(أنت ربنا، وإليك المصير)** ليعود إلى فاصلة التاء نفسها أربع مرات متتابعة أيضا، وهو في مقام الدعاء فيقول: **(فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت)** وهذا كله يصور حال العبد وهو يتضرع هامسا مخفيا لتلك العبادات من إسلام وتوكل وإيمان يخص بها ربه، وربه أقرب إليه يناجيه في أجل عبادة، ويدعوه بمغفرة ذنبه، وقد أحاط به من كل وجه، فصورت تلك الفاصلة – بسكونها، وسكون ما قبلها، مع قِصَر جملها– صورت العبد كأنه يقطع كلامه تقطيعا من جرّاء ما يحيط به وهو مقبل على صلاته من وجل وإشفاق ورغبة ورهبة يصورها أحوال

السلف حين كانوا يقبلون على الصلاة فقد " كَانَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ، تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَفَاضَتْ عَيْنَاهُ. وكَانَ عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ " إِذَا تَوَضَّأَ اصْفَرَّ، فَيَقُولُ لَهُ أَهْلُهُ: مَا هَذَا الَّذِي يَعْتَادُكَ عِنْدَ الْوُضُوءِ؟ فَيَقُولُ: تَدْرُونَ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ أُرِيدُ أَنْ أَقُومَ؟ "[1] والآثار في ذلك كثيرة .

ومن البديع الصوتي تشابه الفاصلتين الكاف والتاء في الصفات فكلاهما مهموس شديد، لكن لا نستطيع إنكار الفرق بينهما عند النطق أو السماع لا سيما حال الوقف؛ فالكاف أعلى في صوتها نظرا لخاصية الاحتكاك، أما التاء فهي أرق حالا، وأخفت صوتا خاصة وقد سبقت – كما مر – بحرف ساكن، فلاءمت فاصلة الكاف مقام الثناء، وفاصلة التاء مقام الدعاء حيث انطراح الداعي وتذلله ووجله. فكم لوقع كل فاصلة من تأثير لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد اللهم اجعلنا منهم آمين .

وهكذا، فحين يتحد مقطع الجمل، ويتشابه يحدث هذا الانسجام الختامي الذي يعود باللاحق على السابق جامعا بينهما بجماع الصوت ووحدة الحرف مما يعمق الصلة اللفظية التي تكون صدى للصلة المعنوية ، والله أعلم.

---

١) الرقة والبكاء المؤلف: ابن أبي الدنيا ص ١٢٣، ١٢٧ – تحقيق: محمد خير رمضان يوسف – دار النشر: دار ابن حزم، بيروت – لبنان –الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

الخاتمة - أسأل الله حسنها-

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد فمن أهم النتائج التي وقف عليها البحث:

- أن إشارات القدماء إلى الدرس الصوتي لم تستثمر حق الاستثمار في الدرس البلاغي مما غيب عنه احد أهم عناصر التحليل.
- أن بعض آثار السلف تعضد الدلالات الصوتية مما يؤكد أهميتها في تدبر المعنى وفقه أسراره ، من ذلك ما رأيناه من شأن (الميم) فهي تدل بمخرجها على الجمع وتقتضيه، وهناك آثار تقول: (اللهم مجمع الدعاء) ، كذلك أصوات المد وكيف كان لها دور رئيس في إشباع المعنى وكون قراء النبيﷺ للقران وبعض الأذكار كانت مدا.
- أن التناسب الصوتي قد يكون بالتوافق فيؤتى بقوي الأصوات في قوي المعاني، وهو الكثير الغالب، وقد يكون بالتقابل فيحمل للثقيل أخف الحركات؛ ليسرع في إزالته وطرحه استثقالا له ونفرة منه. كما في قوله: (خطاياي) حيث وردت بفتح حروفها جميعا .
- أن الأصوات بصفاتها ومخارجها وتجاورها وتضعيفها وكل ما يتعلق بها تُعد من روافد إشباع الدلالة وتأكيدها، فهي تحمل في طياتها دلائل توحي بالدلالات، وخصائص تشي بالمعاني.
- أن لمخرج الصوت قربا وبعدا أثرا من آثار الدلالة فترى في بعد المخرج حكاية للبعد المعنوي كما أن في ترداد الصوت في المخرج الواحد ما يحكي ترداد الفعل ويصور هيأته كما في قوله: (باعد) و(نقني) وغيرهما[١]
- أن اللفظ قد يأتي مستوعبا أصول المخارج (الحلق واللسان والشفتين) فيكون لذلك وجه ما يفيد العموم وهذا بمعونة السياق والقرائن.[٢]

---

١) ينظر البحث ص:

٢) يراجع البحث لفظ (اغفر) ولفظ (اللهم) وغيرها ص:

- أن العناية بأصوات المد كانت من خصائص بلاغة الأداء النبوي مما يمثل عنصرا مهما في إبلاغ المعنى وتقريره .
- كثرة أصوات المد في أدعية الاستفتاح لا سيما المد بالألف، وهذا يدل على وجه العموم على يسر ولين يتناغمان مع حال الذاكر، وهو يمد صوته بلا كلفة، ويطيله بلا مشقة، بل هو الخشوع والسكون؛ حيث لا يحرك الذاكر مع المد أيا من أعضاء نطقه .
- أن أصوات المد من روافد إشباع المعنى وتوسعته وفي هذا سوقٌ للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب ينظر البحث عند تحليل المد في سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وفي قوله ذو الملكوت والجبروت
- أن التآلف الصوتي حال النظم يتأتى من: تناغم الجمل في المباني، وانسجامها طولا وقصرا، ومن لوازم الربط المتفاعلة، ومن الصور البلاغية ذات الوقع الصوتي الملموس، وهذه الروافد تعمل متضامّة متآزرة في إحداث الانسجام التام والتآلف البديع.
- أن وحدة البناء، وتساوي المقدار، وتماثل الحروف مما يقوى الرباط بين الألفاظ والمعاني، ويعمق الصلة بينها ويعمل على حسن تآلفها الصوتي وبديع نظمها اللفظي.
- أن كسر الاطراد الصوتي قرينة على تحوير المعنى ومباينته لما جاء على سنن الاطراد، وهذا التباين رباط صوتي يعمل على إثارة الانتباه ويقظة النفس. ينظر في ذلك البحث عند تأمل المباينة الصوتية بين(لك أسلمت وإليك أنبت وما جاء على نسقه وبين قوله: أنت ربنا وإليك المصير)
- أن تقارن المؤتلف الصوتي من محسنات النظم وبدائع التأليف، وهو مما يقوي تناظر المعاني فيزداد به الحسن، ويروع به الجمال. ينظر وقفة البحث مع قوله: فاغفر لي ما قدمت وما أخرت .

- التناسب بين المطلع والختام رافد صوتي يعمل على التماسك النصي والتلاحم الكلي وتأمل كيف افتتح استفتاح قيام الليل بثلاثة من أسماء الله الحسنى بصيغة الخطاب، فقال: (أنت قيّم أنت نور أنت ملك) وختمه بثلاثة أسماء أيضا فقال: (أنت المقدم وأنت المؤخر أنت إلهي). وكذلك جعل خطاب الملك جل جلاله في هذا الاستفتاح مفتتحا ومختتما فافتتح بقوله: (اللهم لك الحمد)، واختتمه بقوله: (ولا حول ولا قوة إلا بك) فإن الله هو الأول والآخر. البحث ص
- أن الظواهر الصوتية تتفاعل مع السياق تفاعل سائر عناصر النظم يراجع البحث في موضع التكرار والانسجام الصوتي.
- أن اتحاد عدد المكرر داخل النص –مع انطوائه على حكمة دقيقة– يعد من روافد الانسجام الصوتي؛ لأن اللسان يعمل عملا واحدا منسوقا منضدا مرات محددة؛ فيمر الصوت بما مر به، ويطرق أذنه أيضا بالعدد نفسه، وفي هذا طرق متوال لباب القلب، وإيقاظ له، وتحريك لساكنه في المواقف التي يكون فيها الأمر ذا شأن وخطر في الحياة الروحية والنفسية.
- أن تكرار الأسلوب من الروافد الصوتية ذات الأثر الفاعل لا سيما إذا اتحدت بنيته التركيبية أو تقاربت وهذا الباب لم ينل حظه وافيا في الدرس البلاغي وقد جاء منه في الاستفتاح:

- تكرار التشبيه الاشتقاقي، وهذا الضرب من التشبيه له أثر في نسق الصوت وانسجامه، حيث يشعر في بدء الصورة التشبيهية بتقارب الوجه بين المشبه والمشبه به، بل باتحاده، وهذا أدخل في قرب الصلة وإحكام العلاقة بين الطرفين مع ترقب موضع المفارقة ومركز التباين ليتحقق التشبيه، حتى إذا وافى آخرها، وتجلى المقصود كانت النفس القائمة به قد امتلأت من شوقها إليه، وهذا –لا شك– يبعث على التلاحم الصوتي المؤتلف صدره المختلف عجزه، وهذه خاصية لهذا الضرب من التشبيه.

- تتابع أسلوب القصر مع اتحاد بنيته بوحدة طريقه وهو النفي والاستثناء في جميعها، ووحدة مجيء المقصور في المواضع الثلاثة فعلا ، مضارعا، مقيدا، منسولًا بالتجانس الاشتقاقي من فعل الدعاء ومتعلقه ، ووحدة مجيء المقصور عليه ضميرا للخطاب.

- أن أدعية الاستفتاح لم تخرج عن معنيين: الثناء والدعاء، وكان لذلك أثره على البناء التركيبي والنسق الصوتي، فكثر الإسناد إلى الرب وإلى العبد ؛ فالرب هو المثنَى عليه والمدعوّ، والعبد هو المثني والداعي، وكان من تمام الانسجام الصوتي والمعنوي كثرة تعريف الرب –سبحانه– بضمير الخطاب، وتعريف العبد بضمير التكلم، ولا ريب أن في إيثار ضمير الخطاب للرب وتكراره والإلحاح عليه مزيد إحساس بالقرب والدنو من ربه، وقد ناسبه في المقابل ذكر المثني وهو العبد، وتعريفه بضمير التكلم، وبه يظهر العبد فاقته وذلته وانكساره بين يدي ربه.
- كثرة اقتران الخطاب بالتكلم، فكاف الخطاب للرب سبحانه تقابها تاء التكلم، وفي هذا الاقتران تعميق التناسب معنى ولفظا وصوتا، فترى تعلق الداعي بالمدعو، والمثني بالمثنى عليه في تواز بديع يجلي عظمة الرب – سبحانه– وضراعة العبد وانطراحه بين يدي ربه المتعال.
- حين يتحد مقطع الجمل، ويتشابه يحدث الانسجام الختامي الذي يعود باللاحق على السابق جامعا بينهما بجماع الصوت، ووحدة الحرف مما يعمق الصلة اللفظية التي تكون صدى للصلة المعنوية.

هذا، وفي الختام نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فهرس المراجع

١- أصوات اللغة د. عبد الغفار هلال - القاهرة - مطبعة الجبلاوي ١٩٨٨م.
٢- الأصوات اللغوية د إبراهيم أنيس- القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٧م.
٣- إعجاز القرآن (الإعجاز في دراسات السابقين) عبد الكريم الخطيب الطبعة الأولى ١٩٧٤م الناشر دار الفكر العربي
٤- إعجاز القران والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي - الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الثامنة - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م
٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المؤلف: تقي الدين ابن تيمية - الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ
٦- البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج ، المؤلف: محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، الناشر: دار ابن الجوزي الطبعة: الأولى، (١٤٢٦ - ١٤٣٦ هـ)
٧- البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان الأندلسي ، المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر - بيروت الطبعة: ١٤٢٠ هـ ،
٨- بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
٩- بذل المجهود في حل سنن أبي داود -المؤلف: الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، اعتني به وعلق عليه: الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي الناشر: مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات الإسلامية، الهند الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

١٠- البرهان في علوم القرآن ، المؤلف: الزركشي ، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

١١- بغية المستفيد في علم التجويد - سلسلة لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام المؤلف: محمّد بن بدر الدين بن عبد الحق ابن بَلْبَان الحنبلي، اعتنى به: رمزي سعد الدين دمشقية الناشر: دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

١٢- البلاغة الصوتية في القرآن الكريم د. محمد إبراهيم شادي ط/الرسالة - الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م

١٣- البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ، مصطفى السعدني _ منشأة المعارف _ الإسكندرية .

١٤- البيان والتبيين للجاحظ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر: ١٤٢٣ هـ

١٥- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٦- التفسير الكبير للفخر الرازي - الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ

١٧- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد البر - تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب عام النشر: ١٣٨٧ هـ

١٨- التناسب البياني في القرآن د أحمد أبو زيد ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ١٩٩٢م

١٩- تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي المؤلف الدكتور. أسعد أحمد علي- دار السؤال للطباعة والنشر بدمشق- ط/الثالثة ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م
٢٠- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ
٢١- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، المؤلف: ابن قيم الجوزية – المحقق: شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط الناشر: دار العروبة – الكويت الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ – ١٩٨٧
٢٢- جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر ، المؤلف: محمود محمد شاكر جمعها وقرأها وقدم لها: الدكتور عادل سليمان جمال الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة – جمهورية مصر العربية الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م
٢٣- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، المؤلف: محمد محمد أبو موسى الناشر: مكتبة وهبة الطبعة: السابعة.
٢٤- الخصائص، المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي- الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة: الرابعة.
٢٥- خصائص الحروف العربية ومعانيها د. حسن عباس ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٨م
٢٦- دراسة الصوت اللغوي أحمد مختار عمر- ط ١ القاهرة عالم الكتب ١٩٧٦م
٢٧- الدعاء للطبراني المحقق: مصطفى عبد القادر عطا – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت –الطبعة: الأولى، ١٤١٣

٢٨-دلائل الإعجاز، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر الجرجاني الدار ، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة- الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م
٢٩-ديوان امرِئ القيس اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي – الناشر: دار المعرفة – بيروت – الطبعة: الثانية، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م
٣٠-ديوان المتنبي- دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م
٣١-الرقة والبكاء المؤلف: ابن أبي الدنيا – تحقيق: محمد خير رمضان يوسف – دار النشر: دار ابن حزم، بيروت – لبنان –الطبعة: الثالثة، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م
٣٢-روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن قيم الجوزية – الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الطبعة: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ م
٣٣-سر صناعة الإعراب أبو الفتح عثمان بن جني- الناشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان الطبعة: الأولي ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م
٣٤-سنن ابن ماجه المؤلف: ابن ماجة القزويني – المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد – محمَّد كامل قره بللي – عَبد اللّطيف حرز الله – الناشر: دار الرسالة العالمية – الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م
٣٥-سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) المحقق: شعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي الناشر: دار الرسالة العالمية الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م
٣٦-السنن الكبرى المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحُسَين بن عليٍّ البيهقي – تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي – الناشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية (الدكتور / عبد السند حسن يمامة) –الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م

٣٧-شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المؤلف: علي بن محمد الأُشْمُوني – الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م

٣٨-شرح الإلمام بأحاديث الأحكام المؤلف: بابن دقيق العيد – حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: محمد خلوف العبد الله – الناشر: دار النوادر، سوريا – الطبعة: الثانية، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م

٣٩-شرح تسهيل الفوائد المؤلف: جمال الدين ابن مالك – المحقق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة: الأولى (١٤١٠هـ – ١٩٩٠م)

٤٠-شرح سنن ابن ماجة – المؤلف: محمد الأمين البُوَيطي- مراجعة لجنة من العلماء برئاسة: الأستاذ الدكتور هاشم محمد علي حسين مهدي- الناشر: دار المنهاج، المملكة العربية السعودية – جدة – الطبعة: الأولى، ١٤٣٩ هـ – ٢٠١٨ م

٤١-شرح سنن النسائي – المؤلف: محمد المختار الشنقيطي – الناشر: مطابع الحميضي (طبع على نفقة أحد المحسنين) الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ

٤٢-شرح سنن النسائي المسمى «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى، المؤلف: محمد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي الوَلَّوِي الناشر: دار آل بروم للنشر والتوزيع – الطبعة: الأولى

٤٣-شرح شافية ابن الحاجب المؤلف: محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي، حققه الأساتذة: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيى الدين عبد الحميد- الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان- عام النشر: ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م

٤٤- شرح المفصل للزمخشري المؤلف: ابن يعيش- قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م
٤٥- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، المؤلف: عياض بن موسى بن عياض السبتي، الناشر: دار الفيحاء – عمان الطبعة: الثانية – ١٤٠٧ هـ
٤٦- صحيحُ ابن خُزَيمة المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري – حَققهُ وعَلّق عَلَيه وَخَرّجَ أحَاديثه وَقدَّم له: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي – الناشر: المكتب الإسلامي – الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م
٤٧- صحيح مسلم المسمى المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلف: مسلم بن الحجاج – المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي- الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٤٨- الصناعتين المؤلف: أبو هلال العسكري ، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت عام النشر: ١٤١٩ هـ
٤٩- الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية- المحقق: علي بن محمد الدخيل الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ
٥٠- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المؤلف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللَّه -الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

٥١-طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر-الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ.
٥٢-العزف على أنوار الذكر ، للأستاذ الدكتور / محمود توفيق(نسخة اليكترونية على الشاملة)
٥٣-العمدة في محاسن الشعر وآدابه، المؤلف: أبو على الحسن بن رشيق القيروانى - المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد - الناشر: دار الجيل الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
٥٤-عمل اليوم والليلة للنسائي المحقق: د. فاروق حمادة الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت - الطبعة: الثانية، ١٤٠٦م
٥٥-العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي الناشر: دار ومكتبة الهلال.
٥٦-فتح الباري شرح صحيح البخاري المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني- الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.
٥٧-الفوائد العجيبة في إعراب الكلمات الغريبة المؤلف: ابن عابدين، الحنفي - المحقق: د. حاتم صالح الضامن الناشر: دار الرائد العربي – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م
٥٨-الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط مكتبة الخانجي ط ٢ القاهرة ١٩٨٢م
٥٩-لسان العرب المؤلف: جمال الدين ابن منظور- الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ
٦٠-اللغة الشاعرة المؤلف عباس محمود العقاد الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٩٥م
٦١-لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح-المؤلف: عبد الحق بن سيف الدين الدِّهلوي تحقيق وتعليق: الأستاذ الدكتور تقي الدين

الندوي الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا الطبعة: الأولى، ١٤٣٥ هـ – ٢٠١٤ م

٦٢- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت عام النشر: ١٤٢٠ هـ

٦٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف: ابن عطية الأندلسي ، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ،

٦٤- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين المؤلف: ابن قيم الجوزية ، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م

٦٥- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، المؤلف: أبو الحسن المباركفوري – الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند – الطبعة: الثالثة – ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤م.

٦٦- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي ، المحقق: فؤاد علي منصور الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م

٦٧- مسند أبي داود الطيالسي المؤلف: أبو داود سليمان بن داود الطيالسي البصرى – المحقق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي الناشر: دار هجر – مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م

٦٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد

الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

٦٩- مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه - المؤلف: محمد بن علي بن آدم بن موسى - الناشر: دار المغني، الرياض - المملكة العربية السعودية - الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

٧٠- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم تأليف العلامة سعد الدين التفتازاني تح/الدكتور عبد الحميد هنداوي الناشر: دار الكتب العلمية بيروت لبنان- الطبعة الثالثة

٧١- مفتاح العلوم للسكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

٧٢- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم - المؤلف: أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ)- حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال - الناشر: (دار ابن كثير، دمشق - بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت) الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

٧٣- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (شرح ألفية ابن مالك) المؤلف: أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي المحقق: د. عبد الرحمن بن سليمان وآخرون الناشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى - مكة المكرمة الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٧٤- مقاييس اللغة المؤلف: أحمد بن فارس ،المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٧٥- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى - المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي - المحقق: بسام عبد الوهاب الجابي - الناشر: الجفان والجابي - قبرص الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

٧٦- المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي المؤلف: أبو الحسن الهيثمي - تحقيق: سيد كسروي حسن الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

٧٧- مناهج البحث في اللغة تمام حسان- الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية.

٧٨- منحة الباري بشرح صحيح البخاري المسمى «تحفة الباري» المؤلف: زكريا بن محمد الأنصاري، اعتنى بتحقيقه والتعليق عليه: سليمان بن دريع العازمي- الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية - الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

٧٩- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة: الثانية، ١٣٩٢م

٨٠- المنهل الحديث في شرح الحديث ، المؤلف: الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين الناشر: دار المدار الإسلامي الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م

٨١- المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود المؤلف: محمود محمد خطاب السبكي -الناشر: مطبعة الاستقامة، القاهرة - مصر الطبعة: الأولى، ١٣٥١ - ١٣٥٣ هـ

٨٢- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم المؤلف: محمد بن عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: أ. د. عبد

العظيم إبراهيم المطعني الناشر : دار القلم للنشر والتوزيع الطبعة : طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م

٨٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٨٤- النكت في إعجاز القرآن علي بن عيسى الرماني، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام الناشر: دار المعارف بمصر الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م

٨٥- النهاية في غريب الحديث والأثر المؤلف: ابن الأثير ، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي

٨٦- نيل الأوطار محمد بن علي الشوكاني – تحقيق: عصام الدين الصبابطي – الناشر: دار الحديث، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م

٨٧- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، المؤلف: أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	المقدمة	١٢٤٥
٢	مدخل (التعريف بأهم صفات الحروف)	١٢٥٠
٣	نصوص أدعية الاستفتاح	١٢٥٢
٤	التمهيد (الصوت والدلالة في التراث العربي)	١٢٥٦
٥	الفصل الأول: جرْس الكلمة وأثره في التناسب الصوتي	١٢٧٣
٦	المبحث الأول: صفات الحروف وأثرها في التناسب الصوتي	١٢٧٣
٧	المبحث الثاني: مخرج الصوت وأثره في التناسب الصوتي	١٢٨٩
٨	المبحث الثالث: أصوات المد وأثرها في التناسب الصوتي	١٢٩٧
٩	الفصل الثاني: انسجام التأليف الصوتي	١٣٠٦
١٠	المبحث الأول: جمال النسق وانسجام التأليف الصوتي	١٣٠٦
١١	المبحث الثاني: الصور البلاغية وانسجام التأليف الصوتي	١٣١٧
١٢	التكرار والانسجام الصوتي	١٣١٧
١٣	تكرار الكلمة	١٣١٨
١٤	تكرار الجملة	١٣٢١
١٥	تكرار الأسلوب	١٣٢٥
١٦	التعريف والانسجام الصوتي	١٣٢٨
١٧	الجناس الاشتقاقي والتناسب الصوتي	١٣٣٤
١٨	الازدواج والفاصلة والتناسب الصوتي	١٣٣٦
١٩	الخاتمة	١٣٤١
٢٠	فهرس المصادر والمراجع	١٣٤٥
٢١	فهرس الموضوعات	١٣٥٦